دينا ممدوح

قصاصات أنثوية

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد على **4** سنوات، قد أطلقت مشروعها «النشر للجميع.. ولمن يستحق» الذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة – وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبحت سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر عن ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة – اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها – بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها «النشر لمن يستحق» لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج، على رأسها:

– توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

– تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب؛ حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

– تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

– توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصرية، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى – عز وجل – أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثيرًا من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع ستصبح – مثل سابقيها – بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

إهداء

إلى كل من منحني بوجوده حياة كنت أتمناها..

إلى أمي.. من ينبض القلب بها..

إلى أبي.. الغائب الحاضر.. من أحيا على ذكراه..

إلى كل من أهداني حبا صادقا أسعد قلبي..

إليك أنت.. نصفي الأروع وأجمل أقداري..

إلى كل من أهداني ابتسامة ارتسمت على جدار قلبي قبل ملامح وجهي..

إلى عائلتي وأصدقائي.. ثرية أنا بكم..

أهدي إليكم تلك القصاصات..

مقدمة

لكل منا قصاصات مختلفة..

ربما يحلم بها.. ربما يحياها.. ربما يقابلها في دربه..

وتلك القصاصات إحداها..

أما هن..

فيتقابلن.. يختلفن.. وربما يتشابهن..

ولكن يبقى هناك شيء واحد ما يربط بينهن..

إنهن إناث.. إنهن قصاصات تملك نصف الدنيا..

التعريف بالكاتبة

دينا ممدوح محمد...خريجه كليه الحقوق جامعه عين شمس

و صاحبه مدونه (بنت من الزمن ده)

بدايتى فى التدوين بالنسبه لى هى بدايه رؤيتى لـ مفهوم جديد للحياه بعينى وبـ عيون الاخرين

شاركت فى كتاب "علبه الوان" لمجموعه من المؤلفين بـ قصه قصيره تحمل عنوان "مجرد شبح !"

احيانا اشعر بأننى املك صفات طفله صغيره

واحيان اخرى تهرب منى تلك الطفله داخلى عبر طرقات الحياه

احمل داخلى مزيج من الجنون والعقل يصنعوا واقعى

مهلاً...

لماذا تريدين ان تعرفينى حقاً؟؟ وانت لماذا تريد ان تعرف اكثر من ذلك عنى؟

ستجدوننى بين صفحات هذا الكتاب

فـ انا احدى قصاصاته وجزء منه

ولـ كل منا قصاصه خاصه به

فلتبحث عنى هنا

ولكن... بتأن

* * *

للتواصل مع الكاتبة

عبر المدونة:

Bent Men Elzaman Da!!

عبر صفحة الكتاب على «فيس بوك»:

https://www.facebook.com/qsasatAnthwyt.DinaMmdouh

أنا أنثى

أنا أنثى..

تحمل من الصفات تناقضاتها..

ومن الفضائل أرذلها..

أنا أنثى..

بقدر ما تحمل من رقة وحنان وعذوبة كلمات..

بقدر ما تحمل قوة ومسئولية ومكرا ودهاء..

أنا أنثى..

تحمل بين ملامح وجهها ألف وجه..

وبين لحظات أيامها ألف حياة..

أنا أنثى..

تحمل مع ورود الفرح أشواك الأحزان..

ومع عثرات الأيام إيمانها بالقدر..

أنا أنثى..

تحمل بين طيات ذكرياتها الآلام..

ووحدها تستطيع أن تمزج معها الابتسامات..

أنا أنثى..

تفنن الزمن في أن يقتسمها لنصفين:

نصف عاقل..

ونصف يستمتع بالجنون..

فأصبحت أنثى تملك من الجنون تعقله..

ومن العقل جنونه..

* * *

أمنية أنثى

يا رب تقبل دعائي وحقق لي اللي بتمناه..

كانت تلك كلماتها التي تنهي بها دعاءها..

الذي اعتادت أن تدعوه في كل صلاة..

فهي تعلم أن الله – سبحانه وتعالى – قال: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء»..

ودائما كانت تظن خيرا بالله فالله جميل لا يعطي إلا كل شيء جميل..

«ربنا مش بيجيب حاجة وحشة أبدا وانت ليك حكمتك يا رب أنا عارفة»..

حين انتهت من كلماتها..

عبرت بذاكرتها كلمات آخر طبيب ذهبت إليه منذ عده أشهر..

بعد أن أخذت معها كل الإشاعات والتحاليل الطبية التي قامت بها هي وزوجها..

«أنا آسف يا مدام بس فعلا مفيش أمل»..

«ولا حتى بأي عمليات يا دكتور»..

«ده عيب خلقي نادر والعملية نسبة نجاحها هتكون ضئيلة جدا.. أنا آسف»..

كانت تعلم جيدا هذه الكلمات..

فطالما استمعت لثاليتها عندما كانت تذهب إلى الكثير من الأطباء المتخصصين في هذا المجال دون أن يعلم زوجها..

لكنها لم تفقد الأمل أبدا وكانت تبحث عن كل سبيل تحقق به ما تتمناه..

وكان هذا الطبيب هو الأشهر في مهنته ورأته كثيرا على الفضائيات يتحدث عن حلول لمشاكل العقم المستعصية..

فهي قد تعدت الثلاثين من عمرها واشتاقت لطفل تشعر معه بأمومتها تحتويه في صغره ويحتويها في كبرها..

عادت بها الذكريات لفترة خطوبتها بمحمود زوجها..

وكم كان حنونا عليها ويحبها كثيرا..

وهي أيضا كانت وما زالت تحبه كما لم تحب أحدا من قبل، لكنها في بعض الأحيان تشعر أن حبه أصبح يشوبه شائبة..

فقد كانوا يتمنون أن يكتمل حبهم بطفل نصفه منها ونصفه منه ليكون ثالثا بينهم يجمع منهما أجمل الصفات..

انتبهت هنا إلى طعام الغداء الذي كانت تحضره فذهبت إلى المطبخ لتستكمله..

في تلك اللحظة دخل محمود من باب الشقة يبحث عنها..

«أمنية.. إنتي فين؟»..

«أنا هنا في المطبخ تعالى»..

«إنتي لسه بتعملي الأكل»..

«لا أنا خلاص فاضل ثواني والأكل يكون جاهز، ادخل غيَّر لبسك انت أكون حضرت السفرة»..

«لا أنا عايزك تسيبي كل اللي في إيدك وتروحي تلبسي أحلى لبس ..

عندك عشان أنا عازمك على الغدا بره النهارده»..

«بجد يا محمود؟ إحنا بقالنا كتير مش خرجنا اتغدينا بره، عشر دقايق بالظبط وتلاقيني جاهزة»..

ذهبت أمنية تتزين في أبهى ملابسها وأجمل زينتها..

فهما لم يعتادا مؤخرا الذهاب خارجا إلا في الزيارات العائلية والمناسبات فقط..

وكأن محمود كان يظهر إحساسه بفقد أهم شيء في حياتهما عبر التخلي عن الأشياء الجميلة التي كانت تجمعهما فيما مضى، لكنه أصبح اليوم مختلفا، يبدو كما كان في السابق.. هل تقبل الأمر الواقع وحكمة الله؟

«أنا خلاص جاهزة»..

قالتها أمنية فارتسمت ابتسامة على وجه محمود كانت هي تعرف جيدا تلك الابتسامة طالما ابتسمها لها حين كانت ترتدي إحدى قطع الثياب التي يعشق أن ترتديها، فردت ابتسامته بابتسامة خجول منها..

أخذها وذهبا إلى أحد المطاعم التي كانت تعلمها هي جيدا..

«إيه ده يا محمود؟ أنا كان نفسي نيجي المطعم ده من زمان»..

«ما أنا عارف وعشان كده جبتك هنا النهارده»..

«ربنا يخليك ليَّ»..

جلسا وطلبا غداءهما، تحدثا كثيرا وضحكا كثيرا ضحكات طالما اشتاقا لها بينهما..

شعرت أمنية أن محمود من أحبته وتزوجته منذ ست سنوات قد عاد لها كما كان وكأنه تناسى أو تقبل ما كاد يفرق بينهما..

انتهيا من غدائهما وغادرا المطعم المطل على النيل ليقررا التنزه قليلا بجوار النيل ليتذكرا فترة خطوبتهما..

كانت أجمل لحظاتهما هنا وكانت أجمل عبارات حبهما هنا..

بعد أن أدركهما التعب عادا إلى بيتهما..

كانت عينا أمنية تملؤهما الفرحة، وكأن قلبها قد غزاه الحب والسعادة من جديد واستعادت ما افتقدته الفترة الماضية..

«أنا مبسوطة أوي النهارده بجد حاسة انك رجعت تبقى معايا زي زمان وتحبني زي زمان»..

قالتها أمنية مع ابتسامتها الخجول وذهبت لتبدل ثيابها..

وعندما انتهت عادت إلى محمود الذي كـان يجلـس في البلكونـة ومـا زال يرتدي ثيابه..

«انت مش هتقوم تغير لبسك ولا إيه يا محمود؟»..

«لا يا أمنية أنا عايزك في موضوع تعالي اقعدي»..

«خير؟ في ايه؟»..

«إنتي عارفة أنا بحبك أد إيـه وانـتي الإنـسانة الوحيـدة اللـي كنـت بتمناها وما أقدرش أتخلى عنها أبدا..

مهما حاولت أنسى إن في حاجة نقصانا مش بعرف دايما بتخيل ابني ولا بنتي بيجروا حواليا..

ولما أفتكر إن دي مش حقيقة بزعل علينا إننا مش عارفين نحقق اللي بنتمناه»..

تلاشت أحلامها وتخيلاتها بأنه تناسى النقص الذي يحيطهما، يبدو أنه لن يتناسى أبدا!

«كفاية يا محمود إننا اتمنينا بعض وربنا حققلنا ده»..

«وأنا بحمد ربنا عليكي لكن حاولت أنسى بس فعلا مش عارف»..

«انت عايز تقول إيه يا محمود بالظبط؟»..

«أمنية.. أنا قررت أتجوز»..

وكأنه أسقط على رأسها صاعقه رعدية في ليلة ممطرة..

لم يجد منها سوى الصمت؛ فهو لم يقتل أحلامها به فقط، بل قتل قلبها الذي كان يملكه..

«أنا آسف بجد يا أمنية بس أنا نفسي يكون عندي ابن يشيل اسمي»..

بعد الكثير من الصمت الذي غلف محيطها ودموعها التي حاولت أن تبقيها حبيسة داخل عينيها: «وقررت تتجوز مين؟»..

«هبة زميلتي في الشغل اللي حكيتلك عنها قبل كده»..

«انت فاتحتها في الموضوع ولا لسه؟»..

«لا أنا مش قولتلها حاجة لازم أقولك انتي الأول»..

فعاد الصمت يغلفها من جديد..

«أمنية، مش معنى إني بقولك عايز أتجوز إني هطلقك..

انتي عارفه إني ما أقدرش أستغنى عنك أبدا.. وعارف انك هتقدري موقفي، أنا عايزك تفضلي معايا بس سيبيني أحقق حلمي»..

«انت ليه بتتكلم كأنه حلمك انت بس؟؟ ما أنا كمان نفسي أحقق حلمي! نفسي أبقى أم والاقي طفل يقولي يا ماما ويبقى حتة مني لما أكبر ألاقيه جنبي يشيلني.. ليه انت أناني ومش قادر تشوف إلا نفسك؟»..

هنا لم تستطع أن تتمالك دموعها التي انطلقت كالبحر في لحظات المد.. مد دموعها على شواطئ الجراح التي انطلقت داخلها..

«أنا آسف يا أمنية بس أنا حاولت أنسى الموضوع ومش قادر انتي عارفه إني عمري ما كنت أناني معاكي في حاجة.. بس دي الحاجة الوحيدة اللي أنا بتمناها.. وانا عمري ما هاقصر معاكي في حاجة حتى لما اتجوز انتي هتفضلي أول حب وآخر حب في حياتي»..

«حب إيه؟! انت لو بتحبني بجد كنت قدرت تستحملني وتستحمل قدر ربنا..

وطالما مش هتستحملني في حاجة زي دي يبقى انت عمرك ما هتستحملني في أي حاجة»..

«إنتي عارفه إني بحبك بجد وما أقدرش أعيش من غيرك ومحتاج فعلا تكوني معايا، بس أنا لازم أتجوز»..

«ده قرارك يا محمود؟»..

«أيوه»..

«وأنا كمان خدت قراري، انت لازم تطلقني»..

ساد الصمت بينهما فلم يتوقع أن تطلب منه هذا، هو يعلم كم تحبه وكم ضحت لأجله، وهو أيضا يحبها، لكنه لا يستطيع أن يتخلى عن حلمه بالأبوة وبطفل يحمل اسمه..

«بس أنا ما أقدرش أطلقك يا أمنية»..

«وانا ما أقدرش أعيش معاك لما تتجوز واحده تانية.. خلينا نسيب بعض واحنا في احترام بينّا»..

«إنتي بتطلبي مني حاجة صعبة عليَّ»..

«وانت طلبت الأصعب منها»..

«أنا هاسيب البيت يوم ولا اتنين تكون أعصابك هديت وفكرتي فيهم براحتك»..

«أنا مش محتاجة أفكر وقولتلك قراري خلاص»..

انتهى حديثهما هنا فانطلق محمود مغادرًا المنزل..

وذهب إلى منزل أحد أصدقائه وأخبره أنه سوف يقضي معه يومين ..

ولم يخبر أي شخص آخر بما حدث بينه وبين زوجته، فكل من حولهما يعلمون الحب الذي يجمع بينهما من أيام دراستهما الجامعية ولن يتصور أحد ما حدث بينهما!!

* * *

قضت أمنية ليلتها في بكاء مرير لا ينقطع..

لم تتصور أبدًا أن يأتي يوم ويصبح زواجها هي ومحمود من الماضي، لم تتصور أبدًا أن يخونها ولو في أفكاره..

فما الحل إذًا إذا كان سيتزوج عليها؟! حتى لو كان هذا بعلمها فهذا أسوأ وقعًا على قلبها..

يمزقها هذا تمزيقا كلما تتخيل يده ممسكة بيد امرأة غيرها يتلو على سمعها كلمات الحب التي كان يلقيها على سمعها هي، يعيش معها ويشاركها تفاصيل حياته كما تشاركت هي معه فيها..

كم آلمها هذا كثيرا، وكلما تألمت أصرت على قرارها وموقفها وأنها لن تتنازل أبدًا عن طلب الطلاق منه..

حتى إن كانت تحبه فكرامتها فوق حبها وقلبها..

قضت يومين دونه ودون اتصال بينهما تماما وكأنها تتدرب على ..

الحياة دونه..

وكان هو ينتظر أن يرق قلبها وتتراجع عن طلبها وتوافق أن تبقى زوجته على أن يتزوج من أخرى يحقق معها حلم الأبوة الذي طالما حلم به..

مر اليومان كالدهر عليهما وذهب إليها كي يعرف قرارها:

«أنا سبتك تاخدي فرصتك في التفكير براحتك عشان انتي وقتها كنتي متعصبة وانا راعيت ده»..

«بس أنا لسه عند قراري.. أنا عايزة أطلق، خلينا نسيب بعض يا محمود واحنا جوانا حب لبعض واحترام بينا وذكريات جميلة، بلاش تضيع كل ده عشان أفضل فاكراك بحاجة كويسة»..

«بس أنا بحبك يا أمنية»..

ردت والدموع تملأ عينيها: «وانا عايزاك تطلقني»..

وكانت قد جمعت ملابسها وكل ما يخصها من المنزل..

فأخذت حقيبتها وذهبت إلى بيت أبيها وأخبرتهم أنهما قررا الطلاق دون أن تقول السبب، كان قرارها صادما لكل من حولهما وحاول أهلها أن يجعلوها تتغاضى عن قرارها.. لكنها أصرت إصرارا عجيبا أدهش من حولها؛ لأنهم يعلمون جيدا كم تحبه وكان هذا بمثابة علامة استفهام ..

لأسباب الطلاق وإصرارها عليه، خاصة أن محمود هو الآخر طلب منهم أن يحاولوا إثناءها عما أصرت عليه، لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.. فكان يوم الفراق!

ذهبا في هذا اليوم إلى المأذون ليتم الطلاق، كانت صامدة لم تنطق بكلمة سوى أنها تريد الطلاق وكان هو الحزن يملؤه.. وتم الطلاق في صمت..

خرجت من عند المأذون هي أولا لتركب سيارة والدها..

فتبعها محمود حين اقترب من السيارة:

«أنا عايزك تكوني عارفة إني بحبك وهفضل طول عمري أحبك وعملتلك اللي انتي عايزاه بس عشان بحبك، بس أنا مش موافق انك تبعدي عني»..

«أنا كمان يا محمود عايزة أقولك حاجة مهمة أوي.. كنت مستنية الوقت ده عشان أقولك عليها»..

أنصت لها باهتمام وانتظر ما ستقوله..

«أنا دايما كنت براعي مشاعرك عشان أنا كنت بجد بحبك وما كنتش بحب أزعلك أبدًا ولا أقولك إن كل الدكاترة قالولي إني سليمة ومفيش عندي أي حاجة، المشكلة كانت فيك انت مش فيَّ أنا!!»..

نغم منسي

استيقظت في صباحها المشرق بنوره.. الآتي بعطره..

لتبحث عنه بين ثنايا أيامها وإشراقة صباحها وما بين لحظاتها لتتذكر أن هذا يوم آخر من دونه..

فحدثت نفسها قائلة..

«أنا لازم أفوق وافتكر بقى أنه ما بقاش موجود»..

قامت لترتدي ملابسها التي تتسم بالسواد يتخلله بعض من اللون الرمادي..

وكأنها تعيش أيامها لتتقبل العزاء في حبها وقلبها، فلم تعد تستسيغ بهجة الألوان الأخرى بَعدهُ؛ فهذه هي الألوان التي اعتادت أن ترتديها منذ أن ذهب وقرر ألا يعود ليتركها وحدها وسط حزنها وذهولها وذبولها ..

وتركها تتذكر دائما آخر كلمات قرر أن يقولها:

«أنا خايف أظلمك معايا»..

وكأن هذه هي «الأسطوانة» المعتادة التي يلقيها كل من يريد أن يقتل قلب أنثى لا تملك سوى مشاعرها وحبها..

رحل عنها ولكن يأبى الرحيل من قلبها وكأنه تحلو له الإقامة هناك؛ فهي نفسها ترى أن داخلها لا يروق لسواه..

انتهت من ارتداء ملابسها وقررت أن تذهب، لكنها لا تعلم إلى أين..

تمنت أن تذهب إلى أماكن لم تعتَد ارتيادها من قبلُ..

علَّها لا تقابل طيفه يحوم حولها..

فجمعت كل ما ستحتاجه في رحلتها قريبه المسافة مجهولة الاتجاهات..

وكان أول ما تحتاجه هو سماعة الأذن الخاصة بهاتفها المحمول، رفيقتها الدائمة؛ فهي ومنذ فارقها لا تستطيع التخلي عنها؛ لأنها تأخذها إلى عالم آخر لا ترى فيه سواه وسوى أيامها التي كانت تتمنى أن تقضيها معه لتستمع لنغم طالما استمعت له بجواره..

«حبك وجع بعده معي حبك حلم هربان»..

حين سمعت هذه النغمة تذكرت لياليها الطوال التي كانت تقضيها في النظر إلى هاتفها، منتظرة أن ترى اسمه الجديد الذي دونته بعد رحيله «حبيبي سابقا» واهمة نفسها أنه أصبح «سابقا» في حياتها ولكنه بقي حاضرا داخل قلبها..

فكانت تضع له هذه النغمة..

ولكن لم تصدر أبدًا تلك الألحان من هاتفها في أي من لياليها الموحشة التي مرت دونه، فكانت تتعمد سماعها لتثبت لنفسها أنه هنا، أنه يتصل، أنه بالفعل موجود، ولم يكن أبدًا وجوده مجرد حلم..

في تلك اللحظة نفسها رأت طفلة لا يتعدى عمرها العشر سنوات ترتدي ملابس ممزقة تأتي مُقبلة نحوها.. تطلب منها ما تجود به.. علها تجد ما يسد جوعها..

فوضعت يدها في حقيبتها وأعطتها ما جاء في يديها دون أن تعلم مقداره..

محدثة نفسها: «اللي يطلع في إيدي يبقى من نصيبها»..

كم آلمها أن ترى طفلة في مثل هذا العمر لا تجد من يتكفل بها أو يسد ..

جوعها ويقيها من شر ما ستجده في طريقها، فلم تجد كلمات سوى «الحمد الله» أن الله أعطاها ما لم يعطِه لتلك الفتاة الصغيرة..

وعادت لهاتفها تستمع لألحانه..

«مش عايزة غيرك انت والله بحبك انت»..

بقدر ما بهذه النغمة من حب بقدر ما هي موجعة لقلبها..

ومؤلمة لذكرياتها..

فذكريات هذا اللحن معها لم تحتوِ إلا طيفه حين قال لها:

«أنا عارف اننا مش هنكون مع بعض.. بس عايز أقولك إن الأغنية دي بتفكرني بيكي أوي»..

وكأنه كان يعلم جيدا أنها لا تقسم سوى بحبه وكم كانت تستحلفه دائما أن يبقى جوارها فهي لا تملك سواه وسوى حبها له..

فلم تملك عند سماعها إلا البكاء..

مؤلمة هي بعض كلمات الحب.. مؤلمة كثيرا..

في اللحظة ذاتها رأت إحدى الجنازات المارة أمامها..

قاتلة هي لحظات فراق أعز وأقرب الأشخاص على قلوبنا، فراقا دون ..

رجعة.. دون اختيار..

تلك الفتاة هناك تبكي كما لم ترَ هي أحدا يبكي من قبل..

لقد فقدت الفتاة الباكية والدتها، أقرب وأحن القلوب عليها، لم تستطع أن تقول سوى «الحمد لله» فوالدتها ما زالت بقربها..

حين تريد من يحنو عليها تذهب إليها.. حين تريد من يمسح دموعها تكون بجوارها..

كم هي محظوظة لامتلاكها تلك اللحظات التي لم تعد الفتاة الباكية هناك تملكها..

وكأنها لم تتذكر في زمرة تفكيرها أن هاتفها ما زال يدوي بألحانه..

فكان هذا اللحن:

«من يوم غيابك عني ما قدرت لغيرك أكون»..

وكأن هذه لم تكن مجرد إحدى نغمات هاتفها فحسب بل كانت عهدا قطعته على نفسها حين تركها، فلم تشعر بقلبها نابضا للحياة إلا معه..

لم تشعر بوجودها إلا جواره.. لم تشعر بحظها إلا حين حصلت عليه.. لم تشعر بأحلامها إلا حين تحقق هو.. لم تشعر بحب الله لها إلا ..

حين منحها إياه..

فطوال حياتها لم تتمنَّ سواه.. وبعده اعتزلت الأحلام..

وكأن حبه هو اللوحة الوحيدة المعلقة على حائط أحلامها..

لا تعلم كم استمرت في السير ولا تعلم إلى أين ذهبت..

ولكن كل ما تعلمه أنها تذكرت حياتها وكأنه شريط سينمائي يمر أمامها..

كم كان هناك من اللحظات السعيدة فيه.. وكم كان من اللحظات الحزينة فيه..

لحظات شعرت فيها بالضعف.. لحظات أيقظت ما بداخلها من قوة..

رأت كل ما مرت به.. لكنها فقط لم ترَ شيئا واحدا.. «هو»..

وكأنها تعمدت أن تمسحه من شريط حياتها لترى كيف تسير دونه..

حينها استطاعت أن تدرك كم كانت تعطيه حيزا كبيرا بقلبها وكم كان حبه يعصف بها وبأيامها فتمر كأنها لم تحيَها..

حبه الذي جعلها تفقد أحلامها وأمنياتها وجعلها لا ترى ما تملكه في حياتها الآن يغنيها عنه؛ فهي تملك ما فقده غيرها..

حينها قررت أن تعود خالية منه وخالية من آلامها وخالية من ذكرياتها معه وخالية من حبها له..

فمعه لم تستطع أن تأخذ من أيامها إلا الذكرى..

ومن الذكرى إلا الألم..

ومن حبها إلا الوجع..

ومن نومها إلا أحلامها به!!

طعم الحرية

بدأت يومها على أشعة الشمس الساطعة داخل غرفتها..

متسربة من نافذتها الصغيرة التي تتوسط حائط الغرفة..

فقررت أن تستيقظ لتبدأ يوما جديدا لا تعلم بعدُ تفاصيله..

ولكنه كان بالنسبة لها كأي يوم يمر عليها لا جديد فيه..

كان ذلك حين سمعت هاتفها المحمول يرن برنة تُعلمها أن المتصل رقم غريب..

فترددت في الرد..

وبعد إصرار من المتصل ضغطت على زر الرد:

«ألو»..

«ازيك يا حنين، عاملة إيه؟»..

«مين معايا؟»..

«انتي بجد مش عارفة صوتي؟»..

«لا الحقيقة مش واخدة بالي»..

«أنا حسام يا حنين! !»..

«حسام؟!»..

كانت صدمتها لا لأنه يتصل بها بعد سنة كاملة على فراقهما..

ولا لأنه يتصل في وقت غير متوقع..

ولا لأنه يتصل بكل غطرسة متوقعا أن تتذكره بل وأن تكون مشتاقة له..

لكن صدمتها كانت لأنها بالفعل لم تتذكر صوته..

هل نسيته، أم تعمدت نسيانه؟

هل بالفعل لم تتذكر صوته، أم عقلها الباطن تصنَّع هذا؟

هل لم تعد تحبه، أم أنها تتحكم فيما تبقى من كرامتها؟

هل بالفعل تحررت منه؟

أسئلة كثيرة دارت داخلها في ثوان معدودة..

لم تعلم كيف أنهت اتصاله..

لكن كل ما تعلمه أنها كانت المسيطرة والمتحكمة فيما يسري..

حينها تذوق قلبها طعم الحرية.. والتخلص من قيود تسلطه وسيطرته عليها والتحكم بها..

لم تمر لحظات حتى سمعت هتافات عالية تطل عليها من نافذتها الصغيرة ولا تعلم مصدرها..

فتصورت أنها مشاجرة في شارعها، التي اعتادت عليها يوميا، سواء هناك سبب أو حتى دونه..

فلم تنتبه أو تهتم..

لكن الهتافات كانت في ازدياد غريب وتقترب حتى تكاد تشعر أنها بداخل غرفتها نفسها..

وكانت هتافات غريبة على سمعها..

لأول مره تسمع تلك الهتافات في الشوارع:

«عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية»..

هل هي دعاية انتخابية؟

لكن على الرغم من معرفتها الضئيلة بالحياة السياسية وما يجري

فيها.. كانت تعلم أنه ليس هذا توقيت انتخابات..

وما زال الهتاف في ازدياد ويعلو ويعلو:

«يا أهالينا انضموا لينا»..

في تلك اللحظة كان فضولها يقتلها ولا تفهم ما يجري..

فذهبت إلى نافذتها لترى لِمَ تلك الهتافات..

حينها رأت أجمل منظر لم يتصوره خيالها..

رأت في شارعها الصغير الذي كانت دائما تقول مازحة على حجمه:

«ده مش هياخد عربيتين جنب بعض، ده بالكتير أوي يمشوا فوق بعض»..

رأت مئات من البشر..

لا تعلم كيف يسيرون بهذا الترتيب المنظم في شارع ضيق المساحة كتلك..

وكأن زوايا شارعها اتسعت لتحتضن هذا الكم الهائل من البشر..

ولتطالب زوايا الشارع أيضا بالعيش.. والحرية.. والعدالة الاجتماعية..

لم تكن على علم بتلك المظاهرات..

هـي لم تعتَـد أن تتـابع نـشرات الأخبـار ولم تعتَـد أن ترتـاد عـالم الإنترنت، وقليلا ما تقرأ بعض الصحف..

لكن دائما كان هناك بداخلها مكـان مـضيء يحمـل انتماءهـا وحبهـا لوطنها..

حتى لو كانت رأت من مساوئ ما يُطفئ بقعة الضوء تلك داخلها..

لكنها تعلم أن المكان المضيء بداخلها ينطوي تحت اسم مصر..

والأشياء السوداوية الـتي تطغـى علـى بقعـة الـضوء تلـك هـي أفعـال أشخاص فقدوا إحساسهم بالمسئولية المتروكة على عاتقهم وخـسروا كـرامتهم الإنسانية..

حين تقبلوا أموال شعب لم يطالب سوى بمطالبه الإنسانية..

في وسط تفكيرها وهي تنظر لهذا الكم من البشر..

رأت وسط المـسيرة رجـلا يتعـدى الخمـسين مـن عمـره يـسير معهـم هناك..

ويشير لجموع الشعب في البيوت والنوافذ أن ينضموا لهم..

كيف لهذا العجوز الذي يكبرهـا بنحـو ثلاثـين عامـا علـى الأقـل أن يحمل بداخله من الشباب والحماس ما يفوقها هي؟

وهي ما زالت ابنة العشرين ربيعا..

كان ذلك ما جعل الحماس يطرق على قلبها أولى دقاته..

وكأن الرجل في تلك اللحظة سمع ما يجول في خاطرها..

فرأته ينظر نحو نافذتها الصغيرة ويشير لها أن تنزل لتشاركهم..

لا تعلم ما شعرت به تحديدا فقد كانت بداخلها الكثير من المشاعر المتناقضة..

هل تنزل معهم لتشاركهم حلمهم، أم تنتظر لترى إلى ماذا تفضي تلك الهتافات في النهاية:

«مش يمكن تكون زي كل مرة»..

لكن شعورها كان يحدثها أن تلك ليست مثل كل مرة..

فتلك مرة مختلفة تماما..

تذكرت عندما أنهت اتصالها مع حسام وكيف كان شعورها بحرية قلبها.. وإحساسها بالانتصار على خضوعها..

وكم كانت تشعر بالفخر لرد فعلها في اتصال بسيط لم يتعدَّ الدقائق..

كيف هذا الفخر الضئيل في مقابل فخر أعظم؟!

فخر بنصر بلادها على من يخضعها لسيطرته وغطرسته وحكمه ..

المستبد..

وحين تذوق قلبها طعم الحرية وتخلص من قيود تسلطه وسيطرته عليها قررت أن تتذوق إنسانيتها طعم الحرية وتتخلص من قيود تسلط نظام سادي يسلبها كل حقوقها..

وهنا كان الحماس قد تملكها..

ارتدت ملابسها وأخذت علم مصر الذي اشترته في مباراة مصر الأخيرة مع فريق آخر لا تتذكره..

فهذا كان استخدامها الوحيد لعلم بلادها.. المباريات المهمة فقط!

وذهبت لتشارك الشعب مطالبه..

ذهبت لتهتف بجوار ذلك العجوز هناك..

في تلك المسيرة التي اختلط فيها كبر السن بصغاره..

ليكون خليطا مصريا لا يطالب إلا بتذوق طعم الحرية..

* * *

النظارة

هي طفلة لم تخطُ على خط العمر سوى ثماني خطوات يعدونها كالسنوات..

دائما ما كانت تخطفها تلك النظارات الزجاجية السميكة التي يرتديها من هم أكبر منها سنا، دائما ما كانت تشتهيها..

وكأن تلك النظارات الزجاجية تخفي وراءها عالما تتمنى هي الوصول إليه والعيش به..

حذروها كثيرا أنها ستبغض مظهرها بها، أخبروها كثيرا أنها ما زالت صغيرة..

ووجهها الملائكي البريء يجب ألا تخفيه تلك الإطارات السميكة..

لكنها على الرغم من صغر عمرها كانت تملك من الدهاء ما يدفعها كل

يوم للتذمر من ضعف نظرها وعدم قدرتها على استذكار دروسها جيدا..

فأصبح لا مفر من مطالبها التي اعتادت أن تصل إليها بتذمرها الخفي المستتر تحت قناع وجهها البريء..

وكان يوم دخولها لهذا المتجر الذي يقبع على أحد رفوفه هدفها الصغير الذي سعت للوصول إليه..

اختطفتها تلك النظارة هناك..

لم تلتفت أبدًا لجميع محاولتهم بإثنائها عن هذا الاختيار..

لتختار إحدى النظارات الأخرى الطفولية التي تتناسب وعمرها وتبتعد عن تلك التي تملك مثلها جدتها..

لكنها أصرت على اختيارها..

وتركتها هناك ليقوم العامل بتركيب العدسات الزجاجية التي تتناسب مع مقاس نظرها..

وكان هذا اليوم يومها المنتظر الذي تذهب فيه لتأتي بنظارتها التي حلمت بها..

ارتدت أبهى ملابسها وكأنها ذاهبة لنزهة انتظرتها طويلا..

واشتبكت أصابعها الصغيرة بيد والدها..

لتذهب إلى هذا المتجر وتتسلم نظارتها التي انتظرتها طوال أيامها الماضية..

لم تشعر منذ ولدت بتلك البهجة التي اجتاحتها..

وكانت ابتسامتها تغمر وجهها..

واستطاعت للمرة الأولى في سنوات عمرها القليلة أن تستعمرها السعادة..

لم تتمالك نفسها وهرعت لتضعها على وجهها أمام إحدى المرايا التي يمتلئ بها المتجر..

هذه هي النظارات الزجاجية التي احتلت خيالها..

وارتسمت دائما وأبدا أمامها..

حين خرجت من باب المتجر كادت تتعثر وتسقط على الأرض..

أخبرها والدها أن هذا بسبب ارتدائها لتلك النظارة لأول مرة..

لكنها حين تعتاد عليها سيصبح الأمر أسهل كثيرا..

طلب منها أن تخلعها وتضعها على عينيها مرة أخرى حين يصلا إلى ..

المنزل..

وافقت على مضض، لكنها أصرت أن تظل ممسكة بها في يديها..

وكأنها تخاف أن يأخذها منها والدها ولا ترتديها مرة أخرى..

استغرب والدها حالة السعادة التي احتلتها وكأنه يرى طفلته سعيدة لأول مرة..

كانت تجري أمامه في الطريق من متجر النظارات وحتى المنزل..

سعيدة.. تضحك.. حالمة.. تتخيل..

من فرط سعادتها أطلقت يديها للعنان لتستمتع بالهواء الذي أقبل عليها..

وكأنها تطلب منه أن يحتفل معها..

ولم تشعر حينها أنها أسقطت حلمها الصغير من يديها!

مر الوقت حتى اقتربت من المنزل لتنظر في يديها ولا تجد نظارتها..

لم تتمالك نفسها من صدمة المفاجأة الحزينة عليها..

لم تتمالك أن يتسرب حلمها من يديها هكذا..

لم يتمالك والدها نفسه وصفعها صفعة قوية لأول مرة في حياتها، ..

وهو الذي كان يعاملها كطفلته المدللة..

ولم تتمالك هي نفسها فأخذتها نوبة بكاء مريرة..

أصرت أن تعود كل هذا الطريق ثانيا لتبحث عن نظارتها الصغيرة..

لكن دون جدوى..

لم تستطع أن تعثر إلا على صفعات والدها المتتالية على خدها الصغير..

ليذكرها أن ها هو حلمها بعد أن حصلت عليه أضاعته من بين أناملها..

وكأن يديها الصغيرة لم تستطع أن تسع حجم حلمها الذي لم يكن حينها إلا أكبر أحلامها..

لم تكن تعلم أن تلك الإطارات تخفي وراءها عالما كم ستتمنى ألا تعبر جواره حتى!

ولم تكن تعلم أنه سيأتي اليوم الذي ستتمنى فيه كثيرا أن يعود بها الزمان لتمحو ذكرى مؤلمة كم كانت سعيدة بها حينها!!

الفرح المسروق

كان هذا هو يوم أحلامها..

لم تتمنَّ من الله سوى يوم يجمعها به..

يوم تكون فيه امرأته وتحمل اسمه..

يوم يضع يده في يد والدها ويردد والدها: زوجتك ابنتي على سنه الله ورسوله..

لتعلن تاريخ ميلادها حين يقول المأذون: «بارك الله لهما وبارك عليهما وجمع بينهما في خير»..

كم كان هذا هو أجمل مشاهد أحلامها وأجمل أمنية من أمنياتها..

اليوم هو يوم طالما انتظرته..

فقامت والنشاط يملؤها وأمسكت بهاتفها وطلبت رقمه..

لكنها لم تجد سبيلا من هاتفها، فجميع الخطوط منقطعة ولا تعلم السبب..

وكأن هاتفها أصبح جثة هامدة فقررت أن تُجرب هاتف المنزل..

وكان هو السبيل الوحيد لتهاتفه:

«ألو»..

«صباح الخير يا حبيبتي»..

همست بخجل: «صباح النور»..

«أخيرا بعد كل السنين دي النهارده فرحنا وهيجمعنا بيت واحد إن شاء الله؟»..

«إن شاء الله، أنا مبسوطة أوي»..

«يا رب أقدر أخليكي مبسوطة كده دايما»..

«كفاية اننا هنكون مع بعض طول العمر عشان أبقى مبسوطة»..

«يا سيدي على الكلام الحلو اللي على الصبح ده»..

«ما تكسفنيش بقى»..

«حاضر هاسكت أهو»..

«طيب أنا هانزل من دلوقتي أروح للكوافير»..

«أنا كمان هانزل أخلص شوية حاجات كده»..

«انت مش قولتلي انك خلصت كل حاجة امبارح؟»..

«لا.. ما هو في حاجات مهمة لازم أعملها»..

«حاجات إيه؟»..

«أ.. أ.. لا خليها مفاجأة»..

«ماشي أخليها مفاجأة عشان خاطرك بس..

طيب لو حبيت أطمن عليك أعمل إيه والخطوط كلها مقطوعة كده»..

«معلش يا حبيبتي أنا مش هاتأخر هما ساعة ولا اتنين بالظبط وأول ما أوصل البيت هاكلمك وبعدين انتي مش هتكوني فاضية تتصلي بيا، أكيد هتكوني مشغولة»..

«أنا مفيش حاجة تشغلني عنك»..

«ربنا يخليكي ليا»..

«ويخليك ليا.. طيب ممكن تخلي بالك من نفسك؟»..

«حاضر»..

«وفي أقرب فرصة طمني عليك عشان مش أقلق»..

«حاضر»..

«أحمد.. لا اله إلا الله»..

«سيدنا محمد رسول الله»..

أنهت نهال مع خطيبها الاتصال..

وكانت تشعر بشعور غريب لا تعلم ماهيته ولكنها تعلم شيئًا واحدًا أنها غير مطمئنة..

لأنها ولأول مرة تشعر أنها لن تستطيع الاتصال بأحمد حين تريد..

فتذكرت أنها ومنذ أحبته منذ أربع سنوات لم يفرق بينهما شيء أبدًا كأنهما روح واحدة في جسدين كل من يراهما يشعر بالاستغراب..

وكان التعليق الذي يرافقهما:

«انتوا اخوات؟! أصل انتوا شبه بعض أوي!»..

كانت تحمد الله عليه، فهو كان أجمل من أحلامها..

فأحلامها كانت أقل من أن تتمناه..

هو حسن الخلق ويعاملها معاملة حسنة ويهتم بها ويحبها ويعاملها

بكل حنان وحب؛ فمعه لم تشعر أنها تفتقد أي شيء، كان هو يغنيها عن أي شيء آخر..

كانت تعلم جيدا أن أحمد لم يكذب عليها مطلقا منذ تعارفا، لكنها الآن يساورها الشك لما يجول بخاطرها!

في تلك الأثناء كان أحمد وبعد أن أنهى اتصاله مع نهال يحدث نفسه: «أنا آسف يا نهال عمري ما كدبت عليكي بس مش قادر أتأخر على حاجة زي دي»..

كان أحمد هو الأخ الأكبر لأشقائه الثلاثة وكان والده رحمه الله عاشقا لتراب هذا البلد..

كان يأخذ أحمد معه في جولات كثيرة لمعالم بلاده..

ويحكي له عن تاريخ مصر العريق من الفراعنة حتى الآن وينمي بداخله انتماءه لبلده مصر..

وتذكر كلماته..

«يابني مصر دي بلدك مهما كان فيها حاجات وحشة وتاعبة الناس، بس إحنا ما نعرفش بلد غيرها وما ينفعش نعيش في بلد غيرها.. وما نقدرش نحب بلد غيرها.. ولو مصر مش هتكون حلوة بينا يبقى ما نستحقش نعيش ..

فيها»..

فتربى أحمد على انتمائه لمصر المزروع بداخله لا تستطيع الأحداث المحيطة به أن تؤثر فيه..

ولذلك حين أخبره أصدقاؤه بنية المشاركة في المظاهرات التي دعا وشجع عليها الكثير من الشباب في يوم 25 يناير لم يأخذ وقتا في التفكير ورد على صديق عمره ليخبره أنه سيأتي ليشاركهم في المظاهرات؛ فهو لا يستطيع أن يتخلى عن حبه وانتمائه لبلده، وأراد أن يشارك ولو بدور بسيط لكي يكون أفضل..

«أيمن.. أنا نازل معاكم»..

«نازل معانا فين؟ انت مش نزلت يوم 25 عايز إيه تاني؟»..

«لا هانزل معاكم، اللي بدأناه لازم نكمله»..

«انت مجنون يابني.. ده يوم فرحك»..

«مش مشكلة هانزل معاكم الصبح وهارجع أروح لنهال ونروح على الفرح»..

«ازاي بس؟ انت أكيد اتجننت»..

«مفيش كلام خلاص أنا جاي معاكم»..

تلاشى هذا المشهد من أمام عينيه حين تذكر نهال وكيف ستشعر بالقلق لو قال لها إنه ذاهب لمظاهرات.. ومتى؟! في يوم زفافهما المنتظر منذ سنوات، بالتأكيد ستقول له إنه قد جُن..

وتذكَّر بالطبع والدته؛ فهي من ستجن حتما لو علمت بهذا..

فقرر أن يخفي عن الاثنتين ذلك؛ فهو لن يتأخر، سوف يشارك مع أصدقائه في المظاهرات لساعتين لا أكثر وسيعود، لكنه لا يستطيع أن يتغاضى عن النداء الصارخ بداخله وبوجوب مشاركته في تلك المظاهرات..

ذهب أحمد ولم يكن يعلم بذهابه سوى صديقه المقرب وبعض الأصدقاء الآخرين المشتركين بينهما..

بدأت المسيرة والهتافات المتزايدة ومشتعلة الحماس..

كان أحمد لا يستطيع أن يكف عن الابتسام، فكلما يرى ازدياد أعداد المتظاهرين المتواصل بلا انقطاع كان قلبه يبتسم فرحا أن الأمل قريب ويستطيع شم رائحة الحرية قريبة منهم..

فطوال حياته لا يتذكر أن هناك مظاهرات خرجت بتلك الجموع الغفيرة في ظل النظام الحالي..

استمر في الهتاف حتى وصلوا إلى الميدان فوجد أن العـدد هنـاك أكثـر آلاف المرات..

وأخذ صوته يعلو ويعلو ويعلو.. حتى بدأ الهجوم!!

لم يعلم من أي اتجاه كان يأتي هذا الرصاص، لكنه كان مثـل الأمطـار التي تأتي من دون استئذان..

لكن الأمطار تثلج القلوب ويتقبل الله حينها الدعاء..

لكن أمطار الرصاص تلك كانت تـشعل القلـوب ويـسترجع الله حينهـا هداياه..

كان الذهول يشل عقله؛ فهم لم يطالبوا بالمستحيل..

فقط يطالبون بحريتهم في عيش حياة كريمة كمـا تـنص إنـسانيتهم، يطالبون بذلك في مسيرة سلمية ليس إلا!!

لم يستطع التفكير ماذا يفعل وأيـن يـذهب؛ فهـو في مكـان مكـشوف يستطيع الرصاص الغادر أن يطوله أنى ذهب..

فأخذ يبحث عن صديقه حتى وجده يحـاول أن يختبـئ هـو الآخـر، جمعا ما تبقى منهما وقررا أن يمدا يد العون إلى كثير من الشباب المصاب مـن جرَّاء الأعمال المشينة والرصاص الذي أطلق عليهم في أولى لحظاتهم الحقيقيـة ..

لطلب أبسط حقوقهم في العيش حياة كريمة..

* * *

كانت نهال يقتلها القلق؛ فأحمد لم يعُد منذ خمس ساعات ولا تزال الاتصالات جميعها منقطعة ولا تعلم أين ذهب ولا كيف تصل إليه..

وما زاد هذا سوءا الأخبار المنتشرة في جميع القنوات الفضائية عما يجري في ميدان التحرير..

كان هناك هاتف داخلها يوسوس لها أن أحمد بالتأكيد ذهب معهم..

فهي تعلم حبه الكبير لوطنه واستعداده للتضحية من أجله، لكن قلبها كان يُكذب هذا..

«أكيد أحمد مش هيعمل فيَّ كده ولا يقلقني بالمنظر ده يوم فرحنا.. يا رب طمني عليه»..

داخل بيت أحمد.. كانت والدته يعتصر قلبها الخوف والقلق لما تطالعه في نشرات الأخبار..

وتبكي على من ماتوا دون ذنب اقترفوه فقط لأنهم يريدون الحياة ولا شيء سواها..

«كان لازم يعني يا أحمد تعملوا فرحكم في يوم زي ده؟! ربنا يستر يابني»..

هنا فقط انتبهت أن أحمد خرج ولم يعلمها إلى أين ذهب..

ازداد خوفها وقلقها؛ فهي تعلم أنه ترك هاتفه في المنزل لأن جميع الاتصالات منقطعة..

لم تجد سوى نهال تسألها عنه، لكن كان هذا حال نهال أيضا؛ فقد أوقفت جميع ما كانت تقوم به من تجهيزات حتى تعثر على أحمد..

هاتفت والدته جميع تليفونات منازل أصدقائه، لكنها لم تعثر على معظمهم، ومن عثرت عليهم لا يعلمون عنه شيئا سوى أن اليوم هو يوم زفافه!

كانت الدقائق تمر وتسحب وراءها الساعات وامتد القلق من نهال ووالدة أحمد إلى جميع من حولهما..

واجتمعوا وقام كل منهم باتصالاته بالأقارب والمعارف حتى يتوصلوا إلى طريق أحمد، لكن بلا فائدة..

حينها وجدوا صديق أحمد المقرب يدخل عليهم وقد فعلت به الأحداث الجارية ما فعلت..

فصرخت فيه والدة أحمد:

«أيمن، انت كنت فين؟ أنا بحاول أتصل بيك من بـدري، أنـا قولـت انت الوحيد اللي هتعرف أحمد فين»..

«انت إيه اللي عمل فيك كده؟! وأحمد ابني فين؟»..

لم يستطع أيمن أن يرد سوى بدموع تملأ عينيه..

لتسأله نهال:

«انت مش بترد علينا ليه يا أيمن؟ هو أحمد مش كان معاك؟»..

لم يكن رد أيمن سوى دمعاته التي خانته وقررت أن تنطلق من جحر عينيه لينعى لهم أسوأ خبر لم يتوقعوا أبدًا انتظاره في يوم كهذا..

«أحمد مات يا أمي، مات شهيدا.. واحنا عمرنا ما هنسيب حقه»..

لم تتمالك الأم نفسها فسقطت مغشيا عليها..

أما نهال فجحظت عيناها وسقطت جالسة على أقرب كرسي لها..

لم يصدر منها سوى هذا!

لم تبكِ! لم تصرخ! فقط صمتت!!

وكأن صوتها رفض أن يسمعه أحد بعده..

صمتت إلى الأبد! كما أصبح هاتفه مغلقا إلى الأبد! وكما أصبح هو صامتا إلى الأبد!!

لكن بداخلها كان هناك صراخ وعويل يكفيان من ماتوا جميعا وليس هو فقط.. صراخ لا يسمعه سواها..

هم بالفعل احتسبوه شهيدا عند الله..

ولذلك في نفس الليلة التي تقرر أن يكون فيها زفافها..

كانت نفس الليلة التي مات فيها حبيبها..

كانت أيضا نفس الليلة التي قررت أن تذهب فيها إلى المكان الذي قتل فيه أحمد على أيدي الظالمين..

لتستوطن هناك..

حاملة لافتة صامتة مجروحة تطالب فيها بإسقاط نظام قتل صوتها.. وحبها.. وأحلامها.. ومستقبلها.. وحتى حاضرها!!

المعطف

اعتادت أن تمر كل يوم من أمام متجر الملابس الموجود في الشارع القاطن به مقر عملها..

كانت يوميا تتوقف أمام واجهة عرض المتجر التي قليلا ما تتغير..

ودائما ما تتسم بالوقار التي تعشقه هي..

وكان ذلك المعطف – منذ عُرض هناك منذ أكثر من أسبوعين – قد خطف أنظارها وذهنها الذي لم يعد مشغولا إلا به..

ذات يوم قررت أن تتحلى ببعض من الشجاعة لتدخل المتجر وتسأل عن ثمنه، لكنها أولا أرادت أن ترتديه لتختبر زهوها به، وحين ارتدته وجدت نفسها واقعة في حبه حد إدمان مظهرها به.. تحلت بآخر بقايا شجاعتها وتساءلت عن ثمنه الذي كان يفوق توقعاتها بكثير..

فثمنه أغلى كثيرا من مرتبها ومرتب زوجها مجتمعين معا لثلاثة أشهر كاملة، وكان هذا بالفعل أكثر مما تتحمله طاقتها المادية..

وكلما عادت في مخيلتها صورتها حين ارتدته تشتهيه أكثر وأكثر وتتمنى أن يراها زوجها به.. وكيف سيتجدد حبه لها حين يراها في هذا المعطف الذي يجعل منها إحدى نجمات السينما اللاتي يهيم بهن زوجها عشقا..

وعله يُحسن معاملته لها ويتوقف عن إهانتها ببساطة جمالها!

تصارع قلبها وعقلها للتفكير كيف تحصل على هذا المعطف..

حاولت أن تبحث عن مثله في مختلف المتاجر الأخرى بثمن أقل مما وجدته، لكن دون جدوى، وكأن هذا المعطف الثمين أبى أن يكون له قرين..

فكل ما ارتدته لم يمنحها الشعور الذي منحها هذا المعطف إياه، حاولت أن تقترض من صديقاتها، لكن أيضا دون جدوى؛ فجميعهن حالتهن مثلها لا يستطعن أن يستكملن مصروفات الشهر بمرتباتهن الضئيلة..

بحثت عن إحدى الجمعيات التي تعملها صديقاتها، ولكن جميعها مكتملة ولا مكان لها..

هي بالطبع لن تستطيع أن تطلب من زوجها أن يقرضها جزءا من

مرتبه الذي اعتاد أن ينفق نصفه على أوقاته الخاصة برفقة أصدقائه الـذين لا تعلم عنهم شيئا..

ويتركها تقضي أيامها بمرتبها ونصف مرتبه، مما يجعلهما يعيشان على حافة الفقر حتى آخر الشهر..

ولا بد أن زوجها سوف يتساءل عن سبب طلبها لتلك النقـود، وهـي التي تريد أن تقوم بمفاجأته..

ولأن زوجها في الأصل لن يوافـق أن يعطيهـا ممـا ينفـق مهمـا كانـت الأسباب..

لم تجد أمامها إلا أن تطلب سلفة مـن عملـها ولتقتـسمها الإدارة كـل شهر من مرتبها..

ولتكفِ نفسها على مضض بما يتبقى من مرتبها الضئيل..

فقامت بطلب السلفة وكانت أكثر من ثمن المعطف بقليل..

فقد وضعت خطتهـا أن تـذهب إلى الكـوافير لاسـتكمال المظهـر الـذي تحلم به والذي أعطاها إياه هذا المعطف..

فكرت لأول مرة منذ سنوات أن تقوم بتغيير قصة شعرها الذي دائمـا ما يسخر من مظهره زوجها..

في اليوم الموعود قررت إخبار زوجها أنها ستتأخر في عملها قليلا، لم يهتم أن يتساءل لماذا..

لكنه أصر أن يعرف متى ستعود تحديدا.. استغربت ذلك وهو الذي لم يعتَد أن يهتم في هذا المنزل سوى بطعامه ونومه فقط..

لكنها كثيرا ما تغاضت عن تساؤلاته الغريبة والمدهشة التي كانت تتخلص منها سريعا..

في ذلك اليوم ذهبت لمتجر الملابس الذي يتزين به المعطف..

ولكن..

«أنا آسفة يا مدام، ده كان آخر واحد من النوع ده، وفي مدام جت خدته النهارده الصبح»..

لم تتخيل أبدا أن حتى أصغر أحلامها قد تسرب من يديها وأنه كان بمثابة السهل الممتنع..

طالما تمنته، وحين اقتربت من حصولها عليه تسارعت إليه يد أخرى دونها..

انتزع الحدث همتها واستعدادها ليوم جميل..

تنازلت عن فكرة الكوافير وأمر إدهاش زوجها كليا..

ذهبت إلى منزلها خالية الوفاض من المعطف ومن الأحلام..

كانت تعلم أن زوجها ما زال في عمله ولن يراها وهي في هذا المنظر البائس الذي أصبحت عليه..

فتحت باب المنزل حين تسارعت إلى أنفها رائحة سجائر زوجها..

توقعت أن يكون هذا ما تبقى منه منذ ذهب إلى عمله صباحا..

حين اختطف عينيها هذا الكائن الحي داخلها الذي أصبح يتوسط أريكة الصالون..

هرعت إليه، تفحصته.. لتجده بالفعل هذا المعطف الذي تمنته بمظهره الوقور الجميل..

هل يكون هذا هو نفسه المعطف الذي ذهبت لتأخذه ولم تجده؟ هل من الممكن أن يكون زوجها قد جاء به إليها وأصبح بينهما نوع من التخاطر على حين غرة؟

لكنها تذكرت أن البائعة في المتجر هناك أخبرتها أن من جاءت لتأخذه هي امرأة، فما أو من الذي جاء به إلى هنا إذًا؟!

أخذته وذهبت إلى غرفة نومها لتبدل ثيابها وتختبر ارتداءه..

لتجده هناك، زوجها الذي لم يشعر بوجودها الصامت البائس..

وهي معه.. هي صاحبة معطف أحلامها!

قتلتها المفاجأة وأصابتها برصاصة الصمت في مقتل حبها..

فها هي المرأة التي استطاعت أن تحصل على المظهر الذي طالما تمنته طوال أيامها الماضية..

ها هي التي استطاعت أن تسرق منها معطف أحلامها الذي اقتطعت من قوتها لتحصل عليه..

وها هي التي استطاعت أن تسرق زوجها..

معطف أمانها الذي كلما كانت ترتديه..

شعرت بعُريها أكثر..

وأكثر..

صدفة

منذ أن عادت من غربتها وهي تنتظر كثيرا لقاء صديقتها..

هي صديقة عمرها وصديقة طفولتها وصباها..

ذكريات كثيرة تجمع بينهما.. ذكريات اشتاقت هي إليها واشتاقت لاستعادتها..

فكان أول شيء فعلته عندما حطت قدميها على أرض المطار أن اتصلت بصديقتها لتخبرها بعودتها..

لم تكن مجرد عودة لزيارة عابرة كما اعتادت منذ أن سافرت، لكنها كانت عودة نهائية..

مثلما اشتاقت لصديقتها ولذكرياتها اشتاقت لبلدها الذي غابت عنه كثيرا..

..

قاتلة هي الغربة.. وقاتل هو الحنين الصامت لذكريات مضت منذ زمن بعيد ولن تعود أبدا!

«وحشتيني أوي ونفسي أشوفك أنا لسه نازلة من الطيارة دلوقتي وكان نفسي تكوني انتي أول حد أشوفه»..

«اعذريني كنت مشغولة في شوية حاجات.. بس إحنا لازم نتقابل بليل، عندي ليكي مفاجآت كتير ما كنتش عايزة أقولهالك إلا لما تيجي»..

«وانا مستنياكي وعندي ليكي أنا كمان مفاجأة»..

وكان الوعد بلقاء بينهما لاستعادة سنوات كثيرة مرت..

لاستعادة قربهما.. وصدقاتهما.. وذكرياتهما..

وقفت في نافذة غرفتها المطلة على الشارع الواسع الذي تقطن به والذي اشتاقت إليه بازدحامه وأتربته واشتاقت لجيرانها بإزعاجهم وتصرفاتهم..

وقفت تنتظر صديقاتها تأتي محملة بعبق الماضي.. ها هي قد أتت هناك..

ما زالت جميلة ومبهجة كما تعودت أن تكون، ما زالت هناك ابتسامتها مرتسمة دائما على وجهها، ما زالت تشيع البهجة في قلب كل من حولها..

غابت عنها كثيرا، لكنها على الرغم من الغربة لم تجد أبـدًا صـديقة مثلها..

قابلتها بحضن يحمل الكثير من الشوق والانتظار، قابلتها بابتـسامة تقول: «كم اشتقت لأيام جمعتني بكِ»..

بقدر ما بداخلها من حنين بقدر ما عجز قلبها عن وصفه..

لتظل ناظرة إليها صامتة تتذكر أياما قد مضت:

«إيه بقى المفاجأة اللي قولتيلي عليها؟»..

لترد بدلال: «لا أنا زعلانة منـك عـشان مـا جيتـيش اسـتقبلتيني في المطار»..

«ما أنا قولتلك عندي مفاجأة وهتعذريني لما أقولك عليها»..

«وهي المفاجآت بردو تشغلك عني أنا صاحبتك الوحيدة؟»..

«لا طبعا بس أنا كنت عايزة أجهز المفاجأة كلها عشان أول مـا تيجـي أقولهالك»..

«طيب يلا قولي»..

«مش هتقولي انتي الأول؟»..

«لا، لما أعرف الأول إذا كانت مفاجأتك تستحق الأول أسامحك ولا لأ»..

«لا هتستحق وهتسامحيني أنا متأكدة»..

«طيب قولي بقى إيه هي»..

«لا دي ما ينفعش أقول كده، قومي البسي عشان نخرج بسرعة»..

دون تفكير قامت لترتدي ثيابها، شجعها فضولها لمعرفة مفاجأة صديقتها ولاشتياقها للتنزه برفقتها..

اشتاقت أيضا لرائحة هواء وطنها ورائحة مياه النيل المميزة..

وقفت صديقتها أمام أحد المطاعم لتأخذها من يديها إلى الداخل وذهبت إلى إحدى الطاولات الجالس عليها شاب كان ظهره هو المقابل لها فلم ترَ وجهه..

لكنها حين رأته عرفته..

«دي بقى المفاجأة اللي كنت عايزة أقولك عليها.. ده أحمد خطيبي»..

قاسٍ هو القدر الذي يجعل إحدى مصادفاته أن تُخطَب صديقتها المقربة إلى حبيبها السابق..

هي تعلم أنه لم يكن أبدًا ذنب صديقتها ولا حتى ذنبه هو..

فكل منهما كان شخصا مجهولا بالنسبة إلى الآخر لم تُعرفهما ببعضهما أبدًا، لكن القدر قد تكفل بذلك!

«إيه رأيك في المفاجأة دي؟ تستحق تسامحيني ولا لأ بقى؟»..

«طبعا تستحق»..

«طب قوليلي بقى المفاجأة بتاعتك»..

«لا أنا كنت بهزر معاكي، مفيش مفاجآت ولا حاجة»..

لم تستطع أن تخبرها أن مفاجأتها الوحيدة التي تملكها أنها كانت ستبقى هنا ولا تعاود السفر..

فقد تراجعت عن إخبارها بمفاجأتها كما تراجعت عن تنفيذها نهائيا..

فصداقتهما كنت أقوى كثيرا من أن تقتلها صدفة كتلك!

سعادة لا تنتهي

جلست كعادتها في يوم عطلتها على تلك الدكة الخشبية التي تتوسط الحديقة العامة والتي تبتعد عن منزلها بنحو شارعين..

كانت تأتي إلى تلك الحديقة كل أسبوع تجلس وحدها وتحتضن بين يديها إحدى روايات كاتبها المفضل الذي يستطيع بكتاباته دائما أن يسرقها من كل ما يحيط بها مهما كان..

كانت تستمتع بقراءتها والهواء النقي الذي يحيط بها..

حين رفعت عينيها عن كتابها صدفة لتراه..

كان هو يجلس وحده هناك، شد انتباهها ولفت نظرها..

فهي لم تعتَد أن تجد غيرها في هذا التوقيت هنا وفى هذا الجزء من الحديقة تحديدا..

لكن أهم ما شد انتباهها أنه هنا وحده؛ فهي قليلا ما رأت من مثله هنا وحده بل نادرا جدا!!

ظلت تتطلع إليه وإلى هدوئه غير المعهود، في حين أنه لم ينظر تجاهها إطلاقا..

فكرت أن تقترب منه، لكنها خافت من رد فعله..

كان هناك ما يجذبها نحوه: هدوؤه المثير.. وتحركاته.. وجوده هنا بحد ذاته!

ثم توقفت فجأة عن هذا التفكير وأحست أنه غريب بعض الشيء، وحاولت التركيز في عالمها مرة أخرى.. لكن هيهات!

وجدته يخطفها مرة أخرى وظلت تنظر إليه دون أن ترمش بعينيها، أوشكت أن تقوم من مكانها وتذهب إليه..

لم تعرف كيف ستتعرف عليه أو حتى تعرفه بنفسها..

هل تبتسم إليه، أم تحاول مصادقته، أم تقول له اسمها وتترك الباقي عليه؟

وسط أفكارها رأته ينظر نحوها، لم تعلم من أين جاءت تلك القشعريرة التي غزت جسدها فجأة..

فدائما من كانوا مثله في هدوئه وسحر عينيه يسرقونها حتى من ذاتها..

لتجد نفسها مُسيرة إليهم دون أن تدري كيف أو حتى السبب!

نظرت إليه في صمت دون أن تبتسم فوجدته يرد إليها النظرة بذات الهدوء، ابتسمت إليه فلم يرد إليها الابتسامة..

كأنه كان يعلن خوفه من نظراتها وابتساماتها إليه دون سبب..

قررت أن تذهب بنظراتها عنه، ولكن لا مفر.. وجدته يخلق داخلها سعادة لا تنتهي دون مبرر؛ لذلك لم تستطع أن تضع حدًّا لاهتمامها به..

وهو كان يملك من عدم الاكتراث ما سمح له أن يشيح بوجهه عنها..

ظلت هي على ابتسامتها ونظراتها، وكأن الزمن يجري بها، في حين أن هذا كله لم يتعدَّ اللحظات..

وكأن إصرارها على الابتسام أجبره أن يبتسم لها ابتسامة هادئة جميلة كانت تنتظرها منه لتهدم ما بداخلها من قوة ورزانة..

كانت تود حينها أن تذهب إليه، أن تسرقه من عالمه، أن تخطفه من كل ما يحيط به، وكان هو على الرغم من بعده عنها يقبع داخلها..

يسيطر على نظراتها وابتسامتها وأوشك أن يسيطر حتى على قلبها..

كل هذا وهي لأول مرة تراه ولم تستمع لصوته أو حتى أنفاسه..

قررت أن تملك من الشجاعة ما يخولها أن تذهب إليه بنفسها..

حين رأته يعاود النظر إليها ويبتسم ابتسامة أكثر اتساعا وكأنه شعر بكل ما يجول داخلها وكأنه اعتاد عليها وعلى نظراتها وابتسامتها..

وكلما اقتربت منه خطوة واحدة كان هو يقترب منها بنفس القدر ببطء..

حاولت أن تتصنع الدلال، وقفت قليلا لتجده هو الآخر يقف..

وكأنه كان دائما يستمع لذهنها ويربط بينهما توارد الخواطر..

أو لعله قرر ألا يقترب منها إلا إذا اقتربت هي..

كانت بينهما بضع خطوات ولحظات..

كان قلبها يكاد يخرج من بين ضلوعها ويذهب إليه، يشتاق أن يقترب منه.. يستمع لصوته.. يشتاق له وكأنه يعرفه منذ سنوات بعيدة..

لم يظل بينهما سوى خطوة واحدة..

«انت روحت فين يا حازم وأنا بدور عليك؟»..

جاءها هذا الصوت من خلفه ليكون أول شيء يلفت نظرها غـيره منـذ رأته..

فنظر هو إلى مصدر الصوت وتوقف عن مسيرته نحوها..

فعاد نفس الصوت ليخرجها من أحلامها..

«أنا آسفة لو كان حازم ضايقك، أصله لسه متعلم يمشي جديد.. انـتي عارفه بقى الأطفال اللي في السن ده أشقياء ازاي! !».

أماني

هي اسم على مسمى، لم تملك داخلها سوى بقايا اسمها.. لم تملك سوى الأماني..

كانت تمر أيامها تلو الأخرى تشبه بعضها إلى حد التطابق..

لا شيء في يومها سوى عملها الذي اختارت أن يكون داخل منزلها لتكون بجانب بناتها..

فهي لم تحصل من دنياها إلا عليهن، أربع زهرات يعطرن خريف عمرها..

أكبرهن لم يتعدَّ عمرها خمسة عشر عاما..

لا يصدق من يراهن أن الاثنتين أم وابنتها..

فبالكثير يمكن الاقتناع أنها شقيقة كبرى وأختها الصغرى..

أما زوجها فيمكن وصف وجوده بحياتها كالحاضر الغائب..

طالما تحملته وصارعت الزمن لتقدم له الكثير من مساعداتها المادية والمعنوية وحتى العاطفية..

فعلى الرغم من كل ما واجهته معه كانت تحبه، كانت أمنياتها أن يعيشوا حياتهم في سعادة..

لذلك وبعد أن جربت الكثير من الأعمال التي كانت تدر عليها مالا وفيرا لم تجد أهم من وجودها بجانب أسرتها الصغيرة التي لا تملك سواها، فقامت بنقل محل عملها إلى المنزل لتأخذ غرفة صغيرة داخل منزلها وتحولها إلى صالون صغير للتجميل تستقبل فيه زبائن مهنتها التي اعتادت أن تعمل بها لسنوات وأصبحت لا تعلم غيرها..

ولكن لاختلاف مكان العمل قل مجيء زبائنها القدامى..

فكانت تعتمد على من يتعرف عليها من منطقتها السكنية بالصدفة، اللاتي كنَّ يزددن مع الوقت..

حين تأتيها إحدى زبائنها كان المال الذي تأخذه منهن لبناتها، لم تكن تحب أن ينقصهن شيء..

ليعشن مثل من في أعمارهن الصغيرة..

«ماما أنا عايزة فلوس عشان الدرس»..

«حاضر يا حبيبتي»..

«ماما أنا عايزة فلوس أجيب حاجة حلوة»..

«حاضر يا حبيبتي»..

أما زوجها فلم يعتَد بناتها على أن يطالبنه بأي شيء وكأنهن اعتدن أن هي من تلبي طلباتهن دائما وأبدا ووجوده بالنسبة لهن أصبح هامشيا؛ فطلباتهن معه لم تكن تنفذ أبدًا، أما معها هي فطلباتهن أوامر مجابة دائما..

«بقولك إيه يا أماني.. انتي مش كان عندك شغل كتير الأسبوع ده؟»..

«آه يا سامح، خير في إيه؟»..

«أنا عايز فلوس بس مبلغ كبير شوية عشان عايز أشتري تاكسي»..

«تاكسي؟ ليه انت هتسيب شغلك؟»..

«ده بقى شغل مش جايب همه، لا عارف أصرف عليكم ولا على نفسي ولا أجيب حاجة في البيت، هو أنا يعني بشتغل عشان مين؟»..

«علشانا، طب والمبلغ اللي انت عايزه ده كام؟»..

«هو مبلغ كبير شوية بس أنا هارجعه ليكي أول ما أبدأ أشتغل والعربية تجيب فلوس»..

«بس أنا مش معايا مبلغ كبير أوي للدرجة اللي تخليك تقدر تجيب تاكسي يعني»..

«هاتي اللي معاكي طيب وأنا هاتصرف في الباقي»..

فجاءت إليه بالمبلغ الذي استطاعت أن توفره خلال الفترة الماضية من عملها..

كان مبلغا لا بأس به، لكنها تعلم جيدا أنه لن يكفي ما يريده زوجها، لكنها فعلت طائعة له..

على الرغم من قسوته عليها أحيانا فإنها وللأسف ما زالت تحبه ولا ترى سواه ولا تستطيع العيش من دونه..

وكأنها اعتادت عل قسوته عليها وأحيانا ضربه لها..

من الممكن أن يظنها البعض مجنونة..

لكنها مجنونة إن تركته أو تركت بناتها اللاتي لم يكن لديها سواهن..

فلا مكان لها سوى هنا.. معه هو..

«صحيح يا سامح عملت إيه في موضوع التاكسي اللي قولتلي عليه؟»..

«تاكسي؟ آآه التاكسي، أنا قولت لواحد صاحبي وهو هيشوفلي حاجة

كويسة كده ويقولي، أصل المبلغ اللي خدته منك مش كبير ومش عرفت أتصرف في مبلغ تاني من أصحابي»..

«يعني انت سبت الشغل ومش جبت التاكسي لحد دلوقتي، وأنا مش قادرة أتحمل مصاريف البنات لوحدي»..

«ليه مش قادرة؟ ما انتي كل يوم بيجيلك ناس كتير في الكوافير، انتي هتكدبي عليَّ ولا إيه يا أماني؟»..

«لا مش بكدب، بس بناتك بيكبروا ومصاريفهم بتزيد وانا مش حمل ده كله لوحدي»..

«هانت ما تقلقيش»..

كان يمر بين كل حديث وحديث في هذا الموضوع عدة شهور..

وانتظرت أن يأتي يوما ليخبرها أنه جاء بالتاكسي الذي وعدها به ليرحمها قليلا من مصروفات المنزل وبناتهما، ولكن لا أمل منه كما كان يحدث دائما..

«إيه أخبار موضوع التاكسي ده يا سامح؟»..

«تاكسي إيه؟»..

«تاكسي إيه؟! اللي انت خدت الفلوس مني عشان تجيبه.. وسبت

الشغل بتاعك عشانه!»..

«إنتي إيه مش بتزهقي؟ كل شوية زن في الموضوع ده؟»..

«لو مش هزن على شغلك ورزق ولادي أمال هزن على إيه؟»..

«ريحي نفسك، الراجل اللي اديته الفلوس وكان هيشوفلي تاكسي طلع نصاب ونصب على واحد صاحبي تاني»..

«يعني إيه؟ يعني فلوسي وفلوس ولادي راحت؟؟»..

«ما كانتش فلوس الكام ألف بتوعك دول»..

«بس دول حق ولادي وحقي»..

«وانا مش من بقية العيلة ولا إيه؟»..

«انت؟ انت ولا في دماغك حاجة أصلا، واحنا آخر حاجة بتفكر فيها ومش بتفكر إلا في نفسك وبس.. أنا عايزة فلوسي يا سامح بأي طريقة على الأقل عشان أقدر أصرف على ولادك اللي انت مش بتصرف عليهم أي حاجة»..

«إنتي مالكيش عندي حاجة، واللي عندك اعمليه»..

كانت تلك آخر كلماته قبل أن ينزل عليها بكلتا يديه في جميع أنحاء جسدها ليترك في كل مساحة صغيرة بجسدها بقعة زرقاء.. تتلون بلون

القسوة والقهر والذل الذي تعيشه وتستنشقه من هوائها الذي يحتويه..

هو زوجها الذي يسرقها.. فماذا يفعل بها الغريب؟!

هربت إلى داخل الغرفة التي حولتها إلى الكوافير، فلا مكان سواه تذهب إليه..

جلست تبكي لساعات طويلة دون أن ينتبه إليها أحد..

زوجها الذي خان الأمانة التي أعطتها إليه..

كانت معه تتلقى يوميا صدمات فيه، ولكن تلك كانت الأقوى!

هل تترك له البيت لترى كيف سيتصرف دونها وكيف سيصرف على بناته دونها.. ولكن إلى أين ستذهب؟!

ولا مكان لها سوى تلك الجدران المحيطة بها..

وكيف تترك بناتها معه؟ سيتركهن جائعات دون طعام حتى تأتي هي..

لم ينتبه إليهن أبدًا، إلى طعامهن.. إلى احتياجاتهن.. أو حتى إلى حبهن.. كانت قسوته دائما تنتقل إليهن..

فكان هو بالنسبة إليهن مصدر رعب؛ فلم يعتدن التحدث معه أو طلب منه أي شيء..

كانت تعلم جيدا أنه يفعل بها ما يفعل لأنه لا مكان لها سوى هنا، بيته هو ما يحتويها وما يربطها به هن بناتها..

لتدخل حينها عليها طفلتها الصغيرة التي لم يتعدَّ عمرها خمس سنوات:

«ماما، انتي بتعيطي ليه؟»..

«ولا حاجة يا حبيبتي، أنا كويسة»..

«مش تزعلي يا ماما من بابا.. أنا بحبك أوي»..

وتطبع طفلتها الصغيرة قبلة على خدها المبلل بالدموع لتمحوها..

وتمنحها طفلتها حضنا كانت تحتاجه كثيرا لتنسى ما مرت به في يومها..

ولتعلم جيدا ما يجعلها تتحمل ما تمر به طوال حياتها..

تتحمل أي شيء من أجل تلك القبلة البريئة وهذا الحضن الدافئ الذي تمنحها إياه طفلتها كل يوم..

قهوة مرة

خرجت اليوم مبكرا من عملها على غير عادتها..

فقررت أن تذهب إلى مطعمها المفضل القريب من مقر عملها الذي اعتادت أن تتناول فيه قهوتها كل صباح قبل أن تبدأ العمل..

كانت رائحة تلك القهوة هي الشيء الوحيد الذي يحثها حقا على الاستيقاظ، وكأن قهوتها تخبرها أن ها هو يوم جديد قد بدأ فلتكوني مستعدة..

ومنذ جاءت إلى هذه البلدة لتعمل بها منذ عدة سنوات أصبحت تلك القهوة في هذا المطعم قرينتها وكأنها لم تكن تستسيغ أو تتذوق طعم القهوة قبل أن تأتي إلى هنا..

ذهبت إلى هناك وجلست في الركن الذي دائما ما تجلس به في إحدى

زوايا المطعم الذي يؤهلها أن ترى جميع من يجلسون بالمطعم دون أن يراها أحد منهم بوضوح..

جاءت قهوتها وبدأت في ارتشافها بنهم، أغمضت عينيها لتستمتع برائحتها تتجول بين ثنايا روحها لتصبح رائحة القهوة جزءا من الأكسجين الذي تتنفسه..

بعد عدة رشفات بدأت تتجول بأنظارها في المطعم وكانت تلك إحدى هواياتها..

أن تنظر في وجوه من يحيطون بها وكأنها تتخيل من هم.. من أين أتوا..

أسماؤهم.. خصالهم.. حياتهم.. ميزاتهم.. أو حتى عيوبهم..

حينذاك رأته.. لم تستطع استيعاب أن ما تراه حقيقي فأخذت تتأكد وتدقق..

لكنه هو دون شك! هكذا حدثت نفسها..

ظلت عيناها معلقتين به لفترة من الزمن لا تعلم كم دامت..

ربما دقائق.. ربما سنوات كتلك السنوات التي لم ترَه فيها أو تسمع منه أو عنه أي شيء..

نعم هو بالتأكيد، لكن ملامحه اختلفت قليلا..

فقد بدا أن هناك بعض الشيب يظهر على جنبات شعره شديد السواد الذي كانت تعشقه كثيرا من قبل..

وارتدى نظارات طبية تعطيه مظهرا وقورا زائدا على ما يملكه هو بالفعل.. وما المانع أن يختلف؟! فهي أيضا اختلفت قليلا بعد تلك السنوات؛ فقد ارتدت الحجاب منذ جاءت إلى عملها هنا وأصبحت أنحف قليلا..

ولكن لم تظهر عليها علامات الزمن كما فعلت به وكأن السنوات العشر الفارقة بينهم في السن قد ظهرت بطباعها الآن على ملامحه..

نظرت إلى قهوتها مرة أخرى تكاد تنطق وتسألها: هل قررتم أن تجتمعوا الآن؟ هل اجتمعتما معا عليَّ؟

فهو من كان يحببها في تلك القهوة، كانت دائما تطلب قهوتها سكر زيادة، لكن هو دائما كان يطلبها مُرة من دون سكر نهائي..

فقررت في أحد أيام حب جمعهما أن تطلب قهوتها سادة مثله، أن تكون مثله في تفاصيله الصغيرة عل أن تكون تلك التفاصيل ما يجمعهما يوما..

تذكرت قبل خمس عشرة عاما حين كانت هي لا تزال مراهقة صغيرة، لم تقم خبرات الحياة بتعليمها إحدى صفعاتها..

وكان هو يكبرها سنا، كان يبهرها دائما بنضوجه وذكائه وقوه شخصيته، وهي كانت طفلته قبل أن تكون حبيبته، تشعر أنها ملك له ولا تسير حياتها من دونه..

وحين اقترب موعد ارتباطهما الرسمي وإعلان خطوبتهما على الملأ قرر هو أن ينسحب..

خاف من مسئوليتها التي ستلقَى على عاتقه، خاف كثيرا أن يربط حياته بأحد حتى لو كانت هي، خاف من نفسه عليها..

وخاف من حدود يكرهها ستخنقه..

كان أضعف كثيرا من أن يحتفظ بها وبحبها لباقي العمر، فكان يملك من الأنانية ما يخوله أن يحتفظ بلياليه وأحلامه له وحده فقط..

تركها تحب وحدها القهوة مُرة لتكون القهوة مُرة كغيابه، وكأنه كان يعودها على طعم المرارة في حلقها قبل أن يتذوق المرارة قلبها..

في وسط تحديقها ونظراتها المتسارعة المتفحصة له..

رآها.. نظر إليها نظرة طويلة، لكنها دون مغزى!

ظل ينظر إليها لبرهة من الزمن استطاعت وقتها أن تفيق من ذكرياتها لتشيح بوجهها عنه..

لتخرجه قليلا من محيط نظرها أو ربما ذكرياتها..

كيف بعد كل تلك السنوات وهذا البُعد تراه؟

كيف وهي التي تخلت عن أحلامها وتركت بلدها في أقرب فرصة جاءت إليها لكي لا تجمعها به قارة واحدة..

لتذهب بعيدا عنه.. بعيدا كثيرا، علها تنساه أو حتى تنسى قهوته التي جعلها تدمنها مثله تماما!

لكنها كلما ابتعدت كانت تعشق تلك القهوة أكثر، وكلما كانت ذكراه تتبعها وتؤلمها أكثر وأكثر دائما ما يكون الجرح الأول هو أكثر ما يؤلم..

وكيف حين هربت منه ذهبت إليه؟

حينها نظرت إليه، وجدته ينظر إليها من وقت إلى آخر..

كأنه يريد التحديق بها، لكنه يتحاشى ذلك، لم تُبدِ أي اهتمام وكذلك هو!

ولكن نظراته كانت تقول غير ذلك..

هل تذكرها هو الآخر؟ بالتأكيد تذكرها، يجب أن يكون قد تذكرها، هي واثقة من ذلك، فما بينهما لم يكن شيئا عاديا..

فبالتأكيد هو يشعر بمثل ما تشعر هي الآن، بالتأكيد يغزو عقله نهر من الذكريات كما حدث لها الآن..

جمعتهما سنوات حب وجمعتهما ضِعفها سنوات فراق..

تُرى من تغلب على الآخر داخله: حبها له، أم فراقه لها؟

فجأة وجدته يقترب منها، أصابت القشعريرة جسدها..

وكأنها عادت طفلته الصغيرة كما كانت تقف أمامه قبل سنوات عدة مضت..

شعرت أن قلبها تسارعت دقاته ليكاد يتوقف نهائيا..

شعرت أن حرارة جسدها تكاد تساوي حرارة الشمس في نهار صيف حار مشمس، لقد تذكرها بالفعل؛ فهي كانت واثقة من ذلك..

وجدته يقف أمام طاولتها ليحدثها قائلا:

«أنا آسف إني بزعجك.. بس أنا حاسس إني أعرفك، هو إحنا اتقابلنا قبل كده؟»..

لم تتمالك نفسها لكنها وجدت كرامتها تتسارع لترد عليه قبل لسانها:

«لا أنا متأكدة إني مش أعرف حضرتك وأول مرة أشوفك»..

وسط الذئاب

وقفت أمام محطة الأتوبيس في ميعادها اليومي المعتاد..

تتلفت حولها كلما جاء أحد ليقف بجوارها..

نظراتها دائما تائهة.. خائفة.. وشاردة.. وربما مريبة!

جاء الأتوبيس الذي تعودت أن تنتظره كل يوم..

وكالعادة كان مزدحما، وزاد ازدحامه بسبب تدافع من كانوا يجاورونها في المحطة..

ذهبوا جميعا وبقيت هي على أمل بمجيء أتوبيس آخر يكون ازدحامه أقل وطأة من سابقه..

كان ذلك السيناريو المعتاد لكل صباح عند ذهابها إلى العمل..

عملها الذي كانت تتنقل منه إلى آخر على مدار عشر سنوات حتى ..

استقر بها الحال منذ أشهر في مقر عملها الحالي..

حين تخرجت في مدرستها الثانوية كانت أولى الكلمات التي سمعتها من والدتها:

«معلش يا بنتي انتي عارفه ظروفي، أنا من ساعة ما أبوكي مات وأنا بصرف عليكم بالعافية.. مش هاقدر أدخلك كلية، انتي كفاية عليكي الثانوي اللي خدتيه وانزلي اشتغلي عشان تساعديني»..

لم يكن أمامها اختيار آخر..

تغاضت عن أحلامها من أجل مساعدة والدتها، تلك السيدة المسنة وشقيقتها الصغيرة التي من حقها أن تصل على الأقل إلى نفس مرحلتها التعليمية..

لكنها كانت تتمنى لها ألا تواجه نفس مصيرها وما واجهته هي..

فقررت أن تعمل بجد حتى تؤمن لهما حياة كريمة ليست كحياتها تلك التي تعيشها بين ذلك الأتوبيس المزدحم يوميا وبين عملها وما تواجهه فيه..

كانت تتجنب كثيرا الاختلاط والازدحام، كانت تتمنى أن يكون هناك أحد الأتوبيسات الخاصة بالسيدات كما يحدث في عربات المترو..

كم تتمنى أن تكون هناك إحدى محطات المترو بجوار عملها، لكنها اعتادت ألا تتحقق حتى أبسط أمنياتها، وتلك كانت منها!

جاء الأتوبيس الثاني الذي لم يختلف عن سابقه كثيرا..

نظرت إلى ساعتها..

«أنا كده اتأخرت أوي على الشغل.. أركب بقى وربنا يستر»..

صعدت إلى الأتوبيس بعد عناء وتلاحم بين الناس الذين يكتظ بهم الأتوبيس حتى وقفت في مكان صغير للغاية لا يتسع حتى لشقيقتها الصغيرة، لكنها تحاملت حتى تصل إلى عملها..

كلما صعدت إلى الأتوبيس كانت تستعد دائما بأحد أسلحتها البسيطة التي كانت لا تملك غيرها..

دبوس صغير.. الذي كانت تضع منه الكثير في حجابها، لا لتثبيته، ولكن لحمايتها ممن يحيطون بها وينهشون عرضها..

أخذت دبوسها ووضعته بين أصابعها استعدادا لمن تخول له نفسه التعدي على حقها في العيش حياة طبيعية دون التعدي عليها بالتحرش..

لا تنم ملابسها عن دعوة لهم بذلك، بل على العكس دائما ما كانت ملابسها فضفاضة وطويلة تكاد تمنحها أكبر من حجمها بمراحل كثيرة ولا

تنم عن عمرها إطلاقا..

لكنها كانت تأخذها كغطاء يحميها لكن دون جدوى..

فهم هؤلاء الذئاب البشرية، لم يكن يردعهم أي شيء مطلقا؛ فتحرشهم لم يكن نتيجة لغريزة بشرية عادية يجتذبها مظهر مثير، لكنه كان نتيجة لغريزة حيوانية لا يردعها أي شيء نهائيا..

وصل الأتوبيس إلى محطتها فانطلقت منه إلى الهواء الطلق حتى تستنشق بعضا من نسيم الحرية ونسيم الأمان..

دائما ما كان هذا الأتوبيس بالنسبة إليها كالسجن..

انطلقت منه بعد أن غرست دبوسها في عدد لا بأس به من أشباه الرجال، بل مثلما يطلق عليهم دائما بعض الذئاب..

استباحوا جسدها، لكنها دائما كانت مستعدة لهم..

لم تملك من الشجاعة ما يجعلها تنهر أو تشتم أحدا ممن يتطاولون عليها..

وذلك لأن مجتمعنا يرى دائما مهما كانت الأسباب أن المشكلة منها هي لا منه هو مهما كانت المبررات، حتى إن لم تكن ملابسها تدعو للتحرش أو حتى تصرفاتها، وكأن الرجل أصبح من حقه التحرش بها طالما كانت ..

ملابسها ضيقة..

أين هي الحرية التي تتمنى أن تحياها؟!

لم يعلموا أبدًا أن الملابس لم تصبح هي المؤشر والمسيطر على أفعال هؤلاء، بل أصبحت غريزتهم الحيوانية هي المسيطرة عليهم دون غيرها..

أكملت طريقها إلى المحل الذي تعمل به لتبدأ فصلا جديدا من مأساتها التي تواجهها يوميا..

«اتأخرتي ليه يا هانم؟»..

«معلش يا أستاذ كمال، أصل الطريق كان زحمة»..

«كل يوم الطريق زحمة الطريق زحمة، المرة الجاية أنا هاخصم من مرتبك التأخير ده»..

«معلش مش هتأخر تاني بس بلاش حكاية الخصم دي»..

«ماشي، لما نشوف آخرتها.. في بضاعة جديدة لسه جاية ادخلي رتبيها وحطي كل حاجة في مكانها»..

«طب أنا هاستنى لما حد من البنات ييجي عشان يساعدني»..

«لا انتي اللي هتعمليها لوحدك»..

«حاضر يا أستاذ»..

ذهبت إلى مخزن المحل الذي تعمل به، كانت تقوم بمهمة المخزن تلك كل عدة أيام، وكأن هذا هو فقط عملها هنا!

ولم تكن إحدى الفتيات الأخريات اللاتي يعملن معها تقوم بذلك أبدا..

في البداية لم تكن تعلم لماذا هي تحديدا من تقوم بذلك، لكنها مع الوقت بدأت تعرف جيدا لماذا هي!

كانت تتهرب كثيرا من مهمتها تلك، أحيانا تتحجج بإحدى الحجج الواهية، وأحيانا تتحجج أنها تعبة وستؤجلها لأي وقت آخر، وأحيانا كان لا مفر من أن تفعل ما تؤمر به دون نقاش..

وكان هذا الوقت هو أحد تلك الأوقات التي لا مفر فيه من أن تفعل ما تؤمر به؛ فمرتبها لا يحتمل أن يقتص مديرها منه شيئا، وبالكاد تستطيع أن تنفقه على إطعام شقيقتها الصغيرة ومدرستها..

«إيه اللبس اللي انتي بتلبسيه ده؟ مش شايفة انه كبير على سنك ولو لبستي حاجات على سنك هتبقي أحلى بكتير»..

قالها مديرها وهو يقترب منها..

كانت تعرف كلماته تلك ونظراته المصاحبة لها، تعلمت جيدا كيف تهرب من حصاره ومن كلماته ومن نظراته التي كان ينهش جسدها بها يوميا..

هي لا تختلف عن إحدى العاملات معها، بل هن أجمل منها كثيرا، لكنها هي تحديدا كانت بالنسبة له السهل الممتنع..

وهو كان يتبع بخطواته نحوها فكرة الممنوع دائما مرغوب..

في البداية لم ينقذها منه صديقها الدائم دبوس حجابها..

لكنها أصبحت تتهرب منه بجميع الأشكال..

لكنه اليوم نصب لها فخا لم تنتبه إليه؛ فهي وحدها معه..

هو أحد الذئاب الذين تتهرب منهم في كل مكان تذهب إليه..

لم تعلم لماذا تأخرت زميلاتها كل هذا التأخير، لم تدرك أنه هو من طالبهن بالتأخر هكذا، ولم تستطع أن تنتبه إليه وهو يقترب منها ليقتنص فرصة للمسها..

لم تستوعب نفسها سوى وهي تأخذ أحد الكراسي من جوارها لتقذفه به..

«إيه اللي انتي عملتيه ده؟ انتي اتجننتي؟ امشي من هنا، انتي مالكيش شغل عندي ومش عايز أشوف وشك تاني»..

«حرام عليك يا أستاذ كمال، انت عارف إني بصرف على أمي وأختي ومحتاجة الشغل ده»..

«ما انتي لو كنتي فتحتي مخك كنتي هتعرفي تصرفي عليهم كويس أوي، إنما بغبائك ده أنا مش عايزك تشتغلي هنا تاني»..

«طب اديني باقي مرتبي»..

«مالكيش عندي حاجة»..

«حرام عليك يا شيخ، حسبي الله ونعم الوكيل فيك، أنا مش مسامحاك»..

خرجت من المحل منكسرة.. عيناها مليئتان بالدموع وقلبها مليء بالحسرة..

جلست على محطة الأتوبيس تبكي، يقتلها إحساسها بالظلم والقهر اللذين تتلقاهما من كل الاتجاهات..

ظلت جالسة لساعات تفكر ماذا ستقول لأمها وهي جالسة في انتظار مرتبها الشهري..

ماذا ستفعل هي؟ وكيف ستعثر على عمل بتلك السرعة؟

انتظرت الأتوبيس لتعود إلى المنزل ترتاح قليلا وتفكر ماذا ستفعل..

ها قد جاء بنفس ازدحامه وبنفس ما تواجهه دائما..

غلب عليها حزنها فلم تتذكر أن تتسلح بسلاحها المعتاد..

ليواجهها أحد الذئاب دون إنذار لم تشعر بنفسها سوى وهي تمسك بحقيبتها الثقيلة لتضربه بها على رأسه:

«حرام عليكم، انتوا مش بتزهقوا، خلى عندكم دم شوية، ارحموني وسيبوني في حالي بقى جاتكم القرف، حسبي الله ونعم الوكيل»!

مجرد أصدقاء

«إحنا مجرد أصدقاء»..

هكذا كانت إجابتهما دائما كلما يراهما أحد أو يُسألان ما الذي يربط بينهما..

تقابلا فقط منذ أربعة أعوام منذ جاءت هي إلى كليتها المجاورة إلى كليته في الحرم الجامعي ذاته، وكان هو يد العون لها، ولأنه كان أكبر منها وعلى علم بكل صغيرة وكبيرة في الجامعة كان يساعدها في إجراءات كليتها، لم تكن تجمعهما صفات واحدة فقط، بل جمعتهما ملامح متشابهة ومواهب وهوايات مشتركة..

كثيرا ما كانا يتفقان على قراءة أحد الكتب ليتناقشا معا فيه بعد الانتهاء منه..

كل من يراهما يقتنع تماما أن ما بينهما هي علاقة تتعدى الصداقة ربما تصل إلى حب!

لكن إجابتهما دائما تنفي ذلك..

هي.. ربما شعرت أحيانا أن ما يربطها به يتعدى الصداقة، ربما أحيانا شعرت تجاهه ببعض الحب، وأحيانا أخرى كانت تتأكد من ذلك، تتمنى دائما قضاء وقتها معه..

كم كانت تتمنى أن تجمعهما كلية واحدة ليتشاركا حتى في أدق تفاصيلهما..

كانت تشتاق إليه كلما ابتعد حتى ولو لدقائق، كانت تراه مصدر أمانها..

منذ زمن بعيد لم يقترب أحد من محيطها سواه.. منذ زمن بعيد لم تشعر مع أحد غيره مثلما تشعر معه.. منذ زمن بعيد لم تتخيل أحدا يستكمل معها حياتها كما تمنت أن تستكمل حياتها معه الآن..

دائما ما أخبرتها صديقاتها أنه بالتأكيد يحبها؛ فاهتمامه بها لم يكن طبيعيا أو عاديا..

«انتوا بجد مش في بينكم حاجة؟»..

«لا بجد إحنا أصحاب بس»..

«أصل كل اللي بيعمله معاكي ده واهتمامه بيكي مش طبيعي»..

«لا هو بيعتبرني زي أخته»..

«إنتي متأكدة انه مش بيحبك وخايف يقولك مثلا؟»..

«لا مش بيتهيألي»..

كان ردها حينها – ربما – مقنعا لمن حولها، وربما كان مقنعا لها أيضا، لكنها دائما كانت ما تتمنى نهاية مخالفة لذلك..

دائما ما تمنته حبيبها قبل أن يكون صديقها، لكنها لم تفصح أبدًا عن ذلك ولم تدل تصرفاتها سوى على أنها تعتز كثيرا بصداقته..

«مها، أنا عايز أتكلم معاكي في موضوع مهم»..

«اتفضل يا إسلام»..

«أنا عايز اطلب منك طلب بس اوعديني الأول»..

«أوعدك بإيه؟»..

«ان مهما كانت نتيجة اللي هاقولهولك مش تزعلي مني ونفضل أصحاب»..

صمتت قليلا..

ربما جاء بذهنها أن ما شعرت به قد شعر به هو أيضا..

ربما صداقتهما تعدت حدودا قد وضعها حول قلبيهما..

ربما طرقت تلك الصداقة قلب كل منهما لتصبح حبا..

«إنتي سكتي ليه يا مها؟ ها، توعديني؟»..

ارتسمت الابتسامة على وجهها: «أوعدك طبعا يا إسلام.. إحنا مفيش بينا زعل»..

«أنا كنت عايز أكلمك في موضوع بس محرج شوية.. أنا كنت عايز أكلمك على ياسمين صاحبتك، لو ممكن أعرف هي مرتبطة ولا لأ؟»..

صدمتها كثيرا عبارته وأيقنت أن غباءها فقط هو ما جعلها تتخيل أن ما بينهما يتعدى الصداقة، هو ما أقنعها أن ربما حبها دق بابه بعد سنوات صداقتهما..

لكنها الآن – والآن فقط – اقتنعت أن ما بينهما لا يتعدى مجرد الصداقة.

هي وهو

هي.. كم انتظرته طويلا..

هو.. كم غاب عنها كثيرا..

هي.. كم تغاضت عن مساوئه..

هو.. كم عايرها بعيوبها..

هي.. كم تناست كبرياءها لأجله..

هو.. كم استباح تمزيق كرامتها..

هي.. كم فقدت من أيامها وحياتها معه..

هو.. كم عاش حياته في سعادة دونها..

هي.. كم شعرت بضعفها أمامه..

هو.. كم كان قاسي القلب حينها..

هي.. كم باتت من الليالي ودموعها رفيقتها الدائمة..

هو.. كم كان يعاني الصمم ولم يسمع بكاءها..

هي.. كم اشتاقت لحضن يحتويها..

هو.. كم كان هو في حياتها الحاضر الغائب..

هي.. كم حاولت وحاولت أن تتناسى نزواته..

هو.. كم كان خائنا لحبها وحلمها بإخلاصه لها..

هي.. كم ترجته أن يظل كما عاهدته.. أن يظل كما عشقته..

هو.. كم كان مُصرًّا أن يمحو ملامح صورته النقية التي رسمتها له..

هي.. كم تمنته وتخيلته بجوارها في آخر لحظات حياتها..

هو.. كم تمنى وتخيل حياته مع غيرها..

هي.. كم كانت قوية حين تعمدت فقدان ذاكرتها التي تحمل صورته..

ولحظاتها معه.. وخاتمه!

ربيع الأيام

على الرغم من أنها لم تبلغ من عمرها إلا ربيعه، وعلى الرغم من أن أيامها الماضية والمقبلة معدودة.. فإن ما تحمله داخلها من إيمان يفوق من كانوا معمرين في تلك الحياة..

وما ترتديه من أمل يفوق عدد أثواب الأمل التي حاكوها على مر العصور..

هي ما زالت طفلة بقلب ينبض حيوية..

لم يعد مظهرها الذي يفوق عمرها بكثير يؤثر عليها، بل اعتادت عليه ولم تعد سخرية أصدقائها الصغار من مظهرها يضايقها..

بل اعتادت أن ترد عليهم بضحكاتها البريئة الصامتة؛ فهي تعلم جيدا أن الله حكمته تتجسد بها..

وفي انتظار الأمل كانت تعيش.. وبالصبر كانت تحيا..

على الرغم من مرور الأيام كان أملها يزيد وبراءتها تزداد نقاء..

مرت عليها بضعة أعوام جعلتها تتأقلم مع ما ألمَّ بها..

لم يكن من السهل أن تعيش طفلة مثلها في انتظار الموت تحت وطأة المرض الخبيث..

لكن قوتها وأملها وإيمانها وصبرها أسباب كافية تجعلها في انتظار الموت بسعادة ورضا..

رضا قليل ما يملكه الأصحاء أنفسهم..

كان انتظارها للموت البطيء لا يجعلها تتأخر عن دراستها التي كانت دائما ما تتفوق فيها وتصبح من الأوائل في مدرستها، وذلك ما أثار دهشة مدرسيها قبل زملائها..

وكأنها كانت تتحدى مرضها بتفوقها الدراسي..

وحين يأتي موعد رحيلها فترحل من هذه الحياة وهي محققة أحلامها الصغيرة التي تملكها..

فمنذ صغرها وهي تتمنى أن تصبح طبيبة، وطالما شجعتها والدتها

ووالدها على هذا، فتفوقت في دراستها على مر أعوامها الدراسية، وحتى بعد أن علمت بمرضها وجلوسها في منزلها وعدم قدرتها على الحركة لشده ما وصل إليه جسدها من ذبول وتعب..

وفي إحدى جلسات علاجها الموجعة أصابت الطبيب المعالج لها بالدهشة؛ فهي إحدى الحالات النادرة التي قابلها في حياته المهنية وحتى الإنسانية..

نعم هي طفلة صغيرة العمر قليلة الخبرة وضعيفة القوه، لكنها تحمل قوة تفوق عمرها بأعوام..

فلم يجد الطبيب إلا أن يخبرها أنه بحاجة للكثير من التحاليل والأشعات ليتأكد من ظنه، وقامت بها وهي تحمل ابتسامتها الجميلة البريئة كعادتها ليفاجئها الطبيب بخبر لم تكن تتوقعه وهو ما كان يسبب اندهاشه الفترة الأخيرة..

إنها استطاعت بقوتها وأملها وصبرها أن تتغلب على مرضها الخبيث لتكون من الحالات النادرة التي استطاعت أن تقتل المرض داخلها..

استقبلت الخبر بابتسامة أكثر اتساعا من كل ابتسامات حياتها وحمدت الله على ما كرمها به..

فكانت مثالا للقوة والأمل على مر سنوات عمرها، وكما ظلت مواظبة على رعاية زهرة الأمل داخلها ظلت مواظبة على التفوق في دراستها..

لترتاد كلية الطب وتحقق حلمها في أن تزرع الأمل في قلب أطفال يحملون نفس المرض الذي كانت تعانيه قبل أن تزرع في جسدهم العلاج..

وارتدت الانتظار

كان الانتظار هو القطعة الوحيدة التي اعتادت على ارتدائها..

لا أحد يعلم ماذا تنتظر.. هي نفسها لا تعلم من تنتظر..

هل تنتظر نظراته، أم تنتظر همساته، أم تنتظر لحظات صفائه وضحكاته، أم تنتظر كل هذا معا؟!

حاولوا كثيرا إقناعها أن انتظار اللاشيء لن يفضي إلا إلى (لا شيء).. لكنها ما زالت تنتظره..

تنتظره حين اعتاد أن يطمئن عليها..

تنتظره حين اعتاد أن يضحكها بمزحاته..

تنتظره حين اعتاد أن يكون هو سندها..

تنتظره حين اعتاد أن يُقبل ليطمئن عليها..

فمنذ رحيله.. أصبح الكون كله سواء..

فلم تستطع أن تقتنع أنه لم يعد له وجود! لم تستطع أن تقتنع أن فراقه لم يكن ضمن اختياراته..

لم تستطع أن تقتنع أن موته كان صدمتها الأبدية الوحيدة الحقيقية..

فبعده لم تجد من يعوضها عنه.. وكأن مفهوم الأبوة من بعده اختفى.. ولم يعد له معنى أو وجود! !

معنى التلاشي

«سأموت من دونه»..

«لا أحد يموت من أجل أحد»..

كانت تلك نصيحتها لهن دائما..

هن مرضى الحب المزمن..

أما هي..

فكانت حريتها لتجعل تمثال الحرية يتوارى خجلا أمامها..

كانت تتقن الاستغناء عن الجميع..

لكنها حين أصيبت به..

ظلت حريتها حبيسة قلبه..

أسيرة قربه..

ليجلس هو وحده على عرش أحلامها..

كم تمنت معه ثورة عشق..

لكنها..

كانت تعي حد اليقين.. أن معه احتضارها..

كانت تعي حد اليقين.. أن معه رحيل قلبها..

كانت تشعر حد الألم.. أنه يخترق وريدها..

مليئة هي به..

حتى فراغاتها تمتلئ به..

وجميع طرقها تصلها به..

وكأن خريطتها تتلخص في ملامح وجهه..

فحتى الهروب منه مليء به..

وجميع كلماتها تكتمل به..

وكأن الأبجدية تنتهي لديه..

تمنته كثيرا وليتها لم تهجُ ملامحه..

فهو من حوَّل جنتها التي كانت تهنأ بها قبله لجهنم مؤلمة تخشاها بعده..

نعم هي لم تمت لأجله..

لكنها معه وحده عرفت معنى التلاشي! !

هي وهم

هي.. حياتها مليئة بهم..

هم.. نصفها الآخر..

وفي مصطلح آخر يُطلق عليهم هم الرجال.. رجال حياتها..

تبدأ حياتها بهم وتنتهي أيضا عندهم..

تبدأ لحظاتها الأولى في التكون منه؛ فهي جزء منه..

تتنفس أنفاسها الأولى بين ذراعيه..

جزء منها يحمل صفاته وميزاته، وحتى هفواته..

يريدها أن تكون مثله في قوته وفي رجولته!

أن تكون رجلا.. أن يكون هو مثلها الأعلى..

وألا ترى أبدًا أخطاءه.. وهي طائعة..

فتفعل!

لتنتقل إليه أحيانا رغما عنها..

هو يريدها أنثى مثالية استثنائية..

ترى فيه وحده كل الرجال.. تكاد تنادي كل رجال الأرض باسمه..

تراه زوجها وولي أمرها..

يراها ملكا له ويتحكم بها..

ليكن هو مالكها.. وهي طائعة..

فتفعل!

أما حين يأتي هو..

فيقتطف بوجوده جزءا من قلبها وباقي عمرها..

يحمل بعضا من ملامحها..

يحمل بعضا من خصالها..

يراها مثالية وإن لم تكن كذلك..

يرى جميع النساء فيها..

يبحث عن شبيهة لها تقاسمها أيامها معه..

وحينها يبتعد عنها.. وهي صامتة..

فترضى!

غيبوبة

منذ جاءت إلى هنا لم ترَ عيناها سوى اللون الأسود..

لون الظلام حولها الذي أصبح يسيطر على حياتها..

كانت تعيش أيامها فقط في الأحلام التي أصبحت لا تملك سواها طريقا للحياة..

حين تتمنى السعادة تجدها هناك في أحلامها..

المليئة بالورود وعطورها.. المليئة بالأنهار وريحها..

حين كانت تتمنى البكاء كانت تجده في مأساتها..

سعادتها التي فقدتها منذ أصبحت طريحة هذا الفراش..

حزنها الذي أصبح رفيقها هنا..

أما هم..

فلم يتمكنوا أن يشعروا بها طوال حياتها معهم، وبالتأكيد لم ولن يشعروا بها حينما أصبحت على حالتها تلك..

حتى وهي هكذا كانت دائما تستطيع أن تستمع لأصواتهم وتتنسم عبير وجودهم..

لكنها لا تستطيع أن تراهم أو تحدثهم كما كان من قبل..

وكأن هناك من يطبق على أنفاسها كلما حاولت التحدث..

كأن هناك من يربط جسدها بحبال الصمت..

لا تستطيع الحراك.. لا تستطيع الكلام.. لا تستطيع أن تراهم..

كانوا هم مجرد خيالات حولها..

وهم لم يعلموا أنها تشعر بهم إلى هذا الحد، تشعر بهم حد ألمها ألا تكون معهم..

هو تحديدا.. كان يتعامل معها على أنها مجرد خيال وطيف قريبا سيرحل مجرد جثة هامدة..

بعد مرور سنة كاملة على حالتها تلك دون تحسن يذكر وللأسف كانت هي تشعر منه بذلك..

وطفلتها الوحيدة الصغيرة التي اعتادت أن تأتي إليها مرة كل بضعة أيام..

والتي أصبحت المسافة بين تلك الأيام كثيرا ما تطول..

وكلما تأتي إليها تجلس بجانبها وتحدثها بصوتها الرقيق..

يتسرب صوت طفلتها إلى غيبوبتها وكأنه صوت جاء من وراء الغيوم ليحثها على الصمود..

في أحيان كثيرة لم تكن تستطيع أن تتفهم أو تستوعب ما تقوله طفلتها، لكنها كانت تنتظر صوتها بشغف يوما بعد يوم..

وكأن هذا هو الصوت الوحيد الذي أصبح يربطها بالعالم الخارجي الذي أصبحت بعيدة عنه تماما كل البعد..

لم يمنحها القدر أكثر من ذلك ليتسرب أقصى الأصوات إليها، صوت طبيبها الذي حاول أن يقنع زوجها أن حالتها أصبحت ميئوسا منها وأنها لن تتحسن أبدا..

ومن الأفضل إبعادها عن تلك الأجهزة التي أصبحت لا تحيا دونها..

قاسٍ هو القدر الذي يجعل بعض الأشخاص يتحكمون في حياة الآخرين هكذا دون وجه حق..

ولا يستطيعون أن يروا سوى رنين الأجهـزة الطبيـة فقـط دون النظـر إليها هي التي تشعر بهم وبوجودهم ولا تستطيع البوح بذلك..

كم هو أحمق هذا الطـب الـذي لم يتوصـل إلى الـشعور بالبـشر الـذين يحيون داخل غيبوبتهم..

كانت تستطيع أن تتحمل حياة الموت التي كانت تحياها..

لكنهـا لم تـستطع أن تتحمـل تحكـم البـشر في حياتهـا دون الـشعور بوجودها..

وكأنها تمنت أمنيتها الأخيرة من الله وتحققت..

فدوى رنين الأجهزة ليخبرهم أنها اتخـذت القـرار قبـل أن يأخـذوه هم..

وفضلت أن تتخلص من الألم الذي كانت تحياه..

ففي جميع الأحوال كانوا سيقومون هم بذلك!

أزمة «ذات»

وقفت أمام خزانتها تنظر لما تحتويه من ثياب تحاول أن تقرر ما ستردديه اليوم لتذهب إلى الجامعة..

ظلت تنظر لحظات إلى ثيابها التي تتشابه إن لم تكن تتطابق ألوانها وأشكالها لتغلق باب الخزانة في عنف وتذهب لترتمي على سريرها مغمضة العينين..

حين دخلت والدتها:

«يلا قومي يا نهى كده هتتأخري على الكلية»..

«لا يا ماما أنا مش رايحة النهارده تعبانة شوية»..

«إنتي بقالك أسبوعين مش روحتي يا نهى، في إيه مالك؟»..

«مفيش حاجة يا ماما، أنا تعبانه شوية بس»..

«إنتي بقالك كتير بتقولي كده.. تحبي نروح للدكتور»..

«لا أنا هابقى كويسة»..

«طيب على الأقل ابقي كلمي حد من أصحابك واعرفي إيه المهم اللي خدوه في الفترة اللي كنتي تعبانة فيها»..

«حاضر يا ماما هابقى أكلم أي حد منهم»..

خرجت والدة نهى من غرفتها في حين ظلت هي مرتمية على سريرها..

لتسقط دموعها على وجنتيها في صمت..

حتى أمها لا تشعر بما يجول في خاطرها، ولا ترى ما الذي يجعلها تكره الذهاب إلى جامعتها أو حتى تتصل بصديقاتها كي تطلب منهن المحاضرات..

فهن اعتدن أن يلتقين مرة كل أسبوع ليتنزهن معا..

لكنها كانت دائما ترفض الخروج معهن، على الرغم من أنها تشتاق لذلك كثيرا..

منذ فترة ليست بالقريبة أصبحت تتجنب الخروج معهم..

وتتجنب الذهاب إلى الجامعة، وتتجنب الجلوس مع أحد حتى

والدتها..

كان ذلك منذ زاد وزنها بالشكل الملحوظ الذي أصبحت بسببه لا تستطيع ارتداء ملابسها التي تملأ خزانة ملابسها التي دائما ما كانت تتسم باللون الأسود الذي كانت تستخدمه كستار قاتم اللون لتخفي زيادة وزنها..

طوال حياتها كانت تواجه مواقف محرجة بسبب وزنها..

وكثير من المتنمرين كانوا يلقون مزحاتهم عليها دون مراعاة لمشاعرها..

تخيلوا من حولها أنها اعتادت على هذا بسبب رد فعلها الذي كان دائما الضحك وكأنها تضحك محدثة نفسها: «أضحك على نفسي قبل ما حد يضحك عليَّ»..

لكن تلك المزحات دائما كانت تقتلها وتغرس سكينا حادا في قلبها وفي أنوثتها التي كانت تفتقدها كثيرا مع وصولها لعمر العشرينات..

ولم يلقِ أي شاب على سمعها كلمة جميلة أو حتى إطراء عابرا..

كانت تلك أزمتها الشخصية، أزمة ثقتها بذاتها، التي كانت دائما ما تتغلب عليها بالطريق المعاكس؛ فهي تتغلب على حزنها وألمها بالطعام.. الذي أصبح يزيد من وزنها أكثر وأكثر، وأصبحت ملابسها تزداد سوادا أكثر ..

فأكثر..

وأصبحت تسيء من معاملتها لمن حولها: والدتها التي أصبحت تتركها وحيدة وتجلس في غرفتها وحدها حتى لا تلاحظ مقدار طعامها وتنبهها على ذلك..

وصديقاتها التي ابتعدت عنهن كثيرا لكي لا يلاحظن زيادة وزنها الدائمة ولكي لا يعرضن عليها الخروج معهن..

زاد ذلك من حزنها واكتئابها وعزلتها..

لكنها شعرت أنها أصبحت تدور في حلقة مفرغة لا مبرر لها، فقررت من تلقاء نفسها أن تذهب إلى طبيب ليعالجها من حبها للطعام ويساعدها على التخلص من الوزن..

ذهبت وحدها بحماس داخلها على حل أزمتها..

دخلت إلى الطبيب بروح جديدة تتمنى الخلاص من قيودها لتخرج من عنده حاملة بيديها نظامها الغذائي الجديد الذي عاهدت نفسها أن تتبعه كما قال الطبيب لها دون التنازل عن أي خطوة به..

خرجت وهي تحمل داخلها طاقة تساعدها على الوصول لما تتمناه وتشعر أن تلك المرة لا تشبه أي مرة أخرى ذهبت فيها إلى الطبيب..

..

قررت كأولى خطوات نظامها الغذائي ونظام حياتها الجديد أن تذهب إلى منزلها مشيا وتتخلص من المواصلات التي كانت تركبها بين كل متر والآخر..

كانت تستمتع بالمشي كما لم تعتَد أبدًا من قبل..

استمعت لتلك الضحكات هناك التي تعودت على سماعها من قبل..

«شايف البنت التخينة أوي اللي ماشية هناك دي؟ ما تعملوا ريجيم بقى»..

قتلتها الكلمات كما قتلتها شبيهتها كثيرا من قبلُ لتسقط عبراتها على وجنتيها..

أكملت طريقها في خجل من ذاتها ومن مظهرها ومن حجمها، وتبخر حماسها الذي ملكته لساعات وربما لدقائق سابقة..

لتعود إلى منزلها وتعود أزمة ذاتها معها ليكون أول شيء تطرق بابه في المنزل هو باب الثلاجة لتأخذ منها قطعة شوكولاته تركتها قبل أن تذهب إلى الطبيب!

لتتخلى عن هدفها.. وتترك ضعفها يتحكم بها ويسيطر عليها..

تبقى حبيسة قيود جسدها وحبيسة وزنها!!

على حافة حياة

وقفت أمام باب منزلها تنظر إلى الخارج هنـاك إلى بقايـا هـذا المنـزل المقابل لمنزلها..

تعودت أن تنظر إليه يوميا هكذا لتُذكِّر نفسها أن تلك النهايـة هنـاك قريبة جدا منها..

طالما تأملت المنازل الكثيرة المحيطة بها في المنطقة نفسها التي تعيش بها والتي كانت بدايتها حياة ونهاياتها قصفا!

لتنتهي تلك الحياة وتصبح أطلالا لا مستقبل لها وتظـل قابعـة هنـاك وكأنها تنذر المحيطين بتلك البقايا أنـه وارد تماما أن تكـون تلـك نهـايتهم أيضا..

ظلت تتأمل وتتذكر أصدقاءها الذين كانوا يقطنون في تلك المنازل..

هم من لعبت معهم وأحبتهم، هم من تمنت معهم مستقبلا مشرقا يختلف تماما عن حاضرها المليء بالقصف المتكرر..

حاضرها الذي اعتادت فيه على صوت طائرات العدو العابرة فوق رءوسهم، اعتادت على صوت القصف..

وكأنها كلمة «صباح الخير» التي يلقيها العدو عليهم..

واعتادت للأسف على الدمار..

هي من ظلت بعدهم تتذكرهم وتتألم لغيابهم وتتألم لحياتها..

التي لم تستطع فيها أن تنال من أجلهم حقهم الضائع في الحياة الذي لم ينجحوا في الحصول عليه..

كانت مدينتهم تلك إحدى مدن الجمال كما يطلقون عليها يتداخل بها اللونان الأخضر مع الأزرق، تتداخل بها أصوات أجراس الكنائس مع أصوات مؤذني المساجد لتتداخل نظراتها، ولا تعلم من يذهب إلى تلك ومن يذهب إلى ذاك..

ليذهبوا هم وتظل هناك في مدينتهم أطلال جمالها..

وبقايا ذكرياتهم داخلها..

بموتهم..

كم من حيوات لم يعيشوها..

كم من كُتب لم تُكتب..

كم من علاقات لم تكتمل..

كم من أفكار لم تتم تجربتها..

ذات يوم.. ذات عصر.. ذات قصف..

أصبحت معهم وأصبح منزلها كتلك المنازل المحيطة به..

وأصبحت تلك المدينة بكاملها أطلال حياة.

ألوان الحب

هو يرى الأزرق في عينيها المبتسمتين كطفلة صغيرة تشتاق إليه..

وهي ترى الوردي في قلبه البريء كبراءة الأطفال..

هو يرى الأزرق في روحها النقية كنقاء البحر في ليلة منيرة..

وهي ترى الوردي في أنفاسه المعطرة برائحة الورود..

هو يرى في الأزرق طابعه الملائكي الذي يليق بها كثيرا..

وهي ترى الوردي في أيام زاهية تجمعها به..

ولذلك فمنذ تحابا..

أصبحت هي لونها المفضل الوردي..

وأصبح هو لونه المفضل الأزرق..

لتجمعهما أيام لا تنتهي..

ملونة بألوان الحب..

طريق واحد

تقابلتا في تمام الساعة الرابعة عصرا أمام منزلهما كما تفعلان كل يوم منذ عدة سنوات..

فمنذ جاءت إيمان لتسكن في المنـزل المقابـل لهنـد، ولأنهمـا الأقـرب عمرا لبعضهما عن باقي جاراتهما ولأنهما الأقرب من حيث السكن عن جميع زميلاتهما في المدرسة ولأنهما متشابهتان في الصفات كـثيرا.. كـان تعارفهمـا سريعا؛ حيث تجمعهما مدرسة واحدة تتقابلان بها كل صباح..

كان تعارفهما بسيطا وبريئا كملامحهما وكصداقتهما التي كانت تنمو وتزداد سريعا..

أصبحتا كالـشقيقتين لا يفـرق بينهمـا شـيء كـل منهمـا بئـر عميقـة لأسرار الأخرى..

وكل منهما تحث الأخرى على الدراسة والاجتهاد وطاعة أبويهما لتكون صداقتهما كطوق نجاة كل منهما إلى الأخرى..

تجمعهما صفاتهما المشتركة وملامحهما المتقاربة..

فكان هذا لقاءهما اليومي عند تمام الرابعة عصرا..

طريقهما الواحد الوحيد الذي تفترقان فيه..

ممسكتين بيد بعضهما لتذهبا معا إلى آخر الشارع الذي تقطنان به وتذهب كل منهما إلى اتجاه..

واحدة منهما إلى تلك الكنيسة المهيبة القابعة هناك على طرف الشارع، والأخرى إلى المسجد الشريف المقابل لها..

لتتلقيا دروسهما الدينية لتودعا بعضهما لمدة الساعة المقبلة بنظرة وابتسامة بريئتين..

على وعد بلقاء الصداقة بعد ارتشاف جرعة كل منهما الخاصة بأسلوبهما في الحياة..

حلم عابر

كانت الساعة الثالثة صباحا..

عندما رن الهاتف لأول مرة قبل أن تضغط على أحد أزراره ليتوقف عن الرنين..

هي صديقتها التي تعودت أن تتصل بها في هذا الوقت كل يوم فتوقظها لتستعد وتتوضأ لصلاة الفجر..

وقبل أن تضع رأسها لتعود إلى النوم سمعت طرقات على باب غرفتها، قامت من على سريرها بكسل تجر رجليها إلى الباب، فتحته لم تجد سوى والدتها..

«ماما! إنتي خبطتي عليّ؟»..

«أصل انتي وحشتيني أوي يا جميلة قولت آجي أقعد معاكي شوية»..

«إنتي كمان وحشاني أوي يا ماما»..

«عارفة انك بقالك فترة مش بتسألي عليَّ؟»..

«أنا عارفة فعلا إني مقصرة معاكي أوي يا ماما.. سامحيني»..

وارتمت جميلة في حضن والدتها، الحضن الذي اشتاقت إليه..

الحضن الذي دائما ما كانت تحتاجه في أزماتها وصدماتها..

الحضن الذي لا تجد في سواه الدفء والأمان والاطمئنان، الحضن الذي كانت تشتاق إليه كل دقيقة في يومها..

كم كانت تحتاجها في أوقات كثيرة..

كم كانت تؤنب نفسها على تلك اللحظات الكثيرة التي مرت دون أن تكون جوارها.. لحظات لن تعود أبدا..

ليت هناك ذلك الاختراع المدعو آلة السفر عبر الزمن..

لتعود بالزمن لأيام كانت تتمنى أن تطول كثيرا..

بقيت في حضن والدتها لدقائق وربما لساعات، وكم كانت تتمنى أن تكون أياما..

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. لتفيق على صوت مكبر المسجد

المعلق بجانب شرفة غرفتها الذي يشدو فيه المؤذن بأذان الفجر..

لتفتح جميلة عينيها وتكتشف أن ها هو يوم آخر وحلم آخر بطلته أمها..

«الله يرحمك يا ماما، إنتي وحشتيني أوي»..

قبل أن تغلبها دموعها وتنتابها نوبة البكاء المعتادة..

ذهبت لتتوضأ وتصلي الفجر وتقرأ جزءا من القرآن الكريم على روح والدتها الراحلة الحاضرة داخل قلبها..

زيف امرأة

هي امرأة ترتدي قناع طفلة يتسم بالبراءة المزيفة..

منذ أن كانت طفلة اعتادت أن يعاملوها معاملة الأميرات، فأصبح ذلك إجباريا عليهم دون وجه حق لهم في الاعتراض..

لم تكن أبدًا منذ صغرها مثل من هن في مثـل عمرهـا الـصغير، كانـت تتعامل مع من حولها جميعا بنوع من التعالي المتـسم بـبعض الـبراءة، مـزيج غريب وخاص بها لا يملكه سواها ولا يستوعبه أحد إلا هي وحدها!

تتمثل بالطهر.. تتصنع السذاجة.. تتلذذ بالخداع.. ترتسم على حافة عينيها دموع التماسيح..

كانت طفلة تملك صفات امـرأة كاملـة النـضج، تنتظـر اللحظـة الـتي ينطلق فيها نضوجها، وحين كبرت تهيأت عندها تلك اللحظة..

أصبحت لعبتها المفضلة هي خداع البشر، أصبحت البراءة المزيفة تلك

فقط أحد أقنعتها الكثيرة التي تمتلكها..

لتتصنع بها صفاتها وتصرفاتها وخداعها دائما..

حينا تكون غامضة.. وحينا تكون واضحة حد وضوح الشمس..

حينا تتسم ملامحها بالبراءة.. وحينا آخر تكون شرسة حد شراسة اللبؤة..

حينا تتصنع بتصرفاتها السذاجة.. وحينا آخر تكون داهية حد دهاء الذئب..

كانت ماهرة في فنون الغرور قدر إتقانها فنون البراءة..

كانت مبدعة في إتقان كذبها قدر إبداعها في رسم ابتسامتها المزيفة المعتادة..

لكن حين جاء القدر بإحدى ألاعيبه المتقنة التي تفوق كثيرا دهاء ألاعيبها تفنن في إزالة أقنعتها المزيفة واحدا تلو الآخر لتسقط من نظرهم ومن قلوبها شخص تلو الآخر، وليرى جيدا جميع من حولها حقيقتها..

لتبقى وحدها وسط غرورها وزيفها ودموعها..

التي أصبحت ولأول مرة صادقة!!

فصول

تكره الصيف كثيرا.. فصل يدعو إلى البهجة عند بعضهم..

لكنه بالنسبة لها هو فصل يقتل البهجة داخلها..

بشمسه التي تقضي بحرارتها على سعادة تملكها لتصيبها بالكسل..

تكره كثيرا جوه الخانق وحرارته الذي أحيانا تصيبها بالاختناق، الاختناق الذي يجعلها لا تتحمل أحدا..

أما الشتاء.. فهو أحب الفصول إلى قلبها..

على الرغم من برودته فإنه يشعرها بالدفء كثيرا..

دون غيره من الفصول تشتاق إليه..

تشتاق أن تحتضن لحافها لتشعر بالأمان والدفء..

تعشق ليالي ديسمبر الباردة..

تهيم حبا برائحة التراب المبلل بمياه الأمطار، رائحة تبعث روحها على الاستيقاظ..

وأنه على الرغم من البرودة، هناك سبيل دائما للدفء وربما الاختباء!

ليتركها الشتاء دافئة على الرغم من البرودة، ومبتهجة على الرغم من الكسل..

ليأتي الخريف.. فتتساقط تلك الأوراق التي كانت تتخذ أغصان الأشجار هناك مقرا لها..

لينتهي عمرها الافتراضي وتبدأ حياة جديدة في دورة حياة لا نهاية لها..

طالما شعرت أن تلك الأوراق المتساقطة تشبه كثيرا الأشخاص الذين يتساقطون من أوراق حياتها..

وأيامها التي تتساقط من فوق أغصان عمرها..

لتبقى هي في انتظار أن تزدهر تلك الأوراق من جديد..

فيأتي الربيع..

فصل البهجة.. فصل الورود.. فصل الأمل..

فصل يغمر حياتها بالبهجة..

فصل تتنسم فيه حواسها عبير الزهور..

فصل يزرع داخل قلبها الصغير الأمل..

لتبقى ابتسامتها مشرقة تنظر لغد يمتلئ بلونها المفضل الأخضر الزاهي..

هو غد طالما تحيا في انتظاره.

أوهام أنثى

جلست على الأريكة الموجودة في غرفة المعيشة لتشاهد فيلمها المفضل الذي كان بالطبع أحد أفلامها الرومانسية..

كانوا دائما يطلقون عليها ألقابا كثيرة: الحالمة.. الرومانسية..

لكنها دائما لا تبالي.. وعلى الرغم من كلماتهم وألقابهم فإنها دائما ما كانت تحلم به..

ملامحه.. صفاته.. نظراته..

يراقصها.. يدللها.. يحبها..

أغمضت عينيها قليلا تسرح بخيالها فيه لتجده فجأة أمامها.. إنه هو!

ها قد أتى محملا بغد انتظرته بجواره..

ها قد أتى ليحمي قلبها من طول انتظاره..

أخذ يديها الناعمتين ليراقصها قليلا وليحبها كثيرا وليعوضها عن سنوات انتظرته فيها..

لم تستمع لصوته فقط، عيناه هما من تتحدثان لها..

لم يكن هناك حديث يدور بينهما، لكن أعينهما كانت تجري ألف حديث وحديث..

ظلت ممسكة بيديه تتفحص إشراقة عينيه، ظل هو يعطرها بعشقه..

ربما بقيا معا لسنوات على هذا الحال على حساب توقيت بوصلة الحب، لكن على حساب بوصلة الزمن لم يتعدَّ لقاؤهما ثواني معدودة..

لتفيق فجأة على صوت التلفاز وذلك الفيلم الذي كانت تشاهده لتتذكر أن تلك لم تكن سوى أحد مشاهد الفيلم التي تعشقها والتي تمنت كثيرا أن تعيشها معه..

هي ربما لا تعرف من هو أو متى سيأتي، ربما لا تتذكره أو ربما حقا لم تقابله..

لكنها تعلم أنها تعرفه وتنتظره وستمضي عمرا كاملا في انتظاره..

فهي تعرف جيدا أن حبه سيجعلها تتغاضى عن عمر كامل من الانتظار..

أنانية

كانت ملامحها كثيرة التجاعيد، على الرغم من أنها لم تتعدَّ بداية العقد الرابع من عمرها..

لم تكن تعرف في فنون الحياة سوى بعضها، وبعضها ذاك لم يكن سوى أقبحها على الإطلاق..

تفننت في لعبة واحدة ألا وهي الرجال..

تحب هذا اليوم.. وتتركه غدا..

تحب هذا غدا.. وربما تحب معه رجلا آخر.. وربما هناك رجل ثالث لا أحد يعلم عنه شيئا..

كانوا بالنسبة لها كأنهم قطع شطرنج، ذكاؤها المحدود لم يؤهلها لإتقان لعبة الشطرنج، لكن دهاء الأنثى داخلها مكنها من إتقان لعبة الرجال ..

عن جدارة..

تزوجت صغيرة في العمر وطُلقت في العمر ذاته..

لم تضع اعتبارا لطفلتها الصغيرة، لم تخف على سمعتها وسمعة طفلتها..

كانت تملك من الأنانية ما يعميها عن كل البشر إلا نفسها!

لتتركها رضيعا تنتظر مصيرها من عابري السبيل، لم تتذكرها إلا نادرا لتصطبغ غريزة الأمومة داخلها بأنانيتها..

فتصبح بنفس القبح.. بل أكثر قبحا بكثير..

وتمر حياتها.. ليختفي الرجال من حولها!

وتصبح بالنسبة لهم لعبة مهلكة.. منتهية الصلاحية..

فينهرها هذا.. وينفرها ذاك..

ولا تجد طريقا لها سوى طفلتها الصغيرة التي تناستها منذ زمن بعيد..

تلك الصغيرة التي أصبحت شابة في مقتبل العمر..

جاءت إليها بعد أن بدأ دور طفلتها في النسيان!

بعلم الوصول

تحية طيبة عزيزي..

تحية خالصة منك إليك..

تحية ربما أطالبك فيها بالعفو عني..

فقد قررت اليوم أن أخرج قليلا عن صمتي..

لأرسل إليك هذا الخطاب المسجل بعلم الوصول..

والمحمل بتحياتي المعبقة بعبيرك..

على مر سنوات..

تعلمت منك السماحة والرضا..

تعلمت منك الهدوء والحب والصبر..

فلِمَ تصبر على الجميع ما عداي؟

لِمَ تسامح الجميع سواي؟

أعلم جيدا كم كنت قاسية معك..

وكم عذبتك بحيرتي وقلقي..

وكم تركتك تقتلك حيرتك تلك..

أعلم جيدا أنه دائما كان لي يد في تعذيبك..

ودائما كنت أسمح لهم بجرحك دون أدنى اعتراض مني!

أعلم جيدا مدى سلبيتي وضعفي..

لكني أعلم جيدا مدى رقتك..

ألهذه الدرجة لم تعد تمتلك مساحة صغيرة داخلك لمسامحتي؟!

لم أعد أستطيع الحياة هكذا وأنا شاعرة بعقدة الذنب نحوك..

أشعر بالموت دونك..

أتنفس بك..

أحب منك وإليك..

وأحيا معك وبك فقط..

ألم يحن الوقت لتكف عن تذكيري بعذاباتي لك وألمك..

الذين لم تستطع حتى الآن التخلي عنهم..

لذا أحيا حاضري ومستقبلي في انتظار غفرانك عني..

المرسل: رهينة في انتظار عفوك..

المرسل إليه: قلبي الجريح..

عَلَى جسرِ من الأوهَام

وقفت عَلَى جَسر من الأوهَام..

تُلملم أَشلاَء ذكرياتـها.. ترتدي أمطار الحُزن..

وتَحمي قلبها بمَظَلة يَكسوهَا الحَنِين..

عَلهَا تَعبر إليه، فهي تَعلَم أن هذا وَحَدهُ طَريقهُ..

وَلكنهَا..

عَادت خَالية منهُ..

لا تَمتَلك سوى بَقايا آمَالهـاَ.. وَحُبـهَا..

قصاصات أنثوية

حين تعودت على خيبات الأمل..

أصبحت ضربات الأمل أحيانا غير مستساغة..

* * *

كانت تهتم بهفواتهم وتفهماتهم دوما..

لكنها حين عثرت عليه..

أصبحت تترفع كثيرا عن لغو الآخرين!

* * *

لم تكن تعلم أنها ستشتاق هكذا لشهادتها الدراسية..

التي كانت تمقتها بشدة..

لمجرد أن ترى إمضاءه عليها..

كم تشتاق أن ترى خطه.. مجرد خطه فقط!

* * *

اعتادت على ألا تتحقق أحلامها..

لكن حين منحها القدر إياه..

كان هو حلمها الوحيد الذي استطاعت تحقيقه..

* * *

ترسم دائما نصف ابتسامة على شفتيها..

التي نادرا ما تكون معبرة عن مشاعرها الحقيقية..

ترسم نصف سعادة لتشاركهم سعادتهم دون أن تشعر حقا بها..

ترسم داخل قلبها نصف راحة لترضى دائما بأنصاف الحلول..

علها تكتمل لتكون في أحد الأيام حلولا كاملة لتعيش حياتها كلها..

فقط بنصف حياة!!

* * *

تمر أيامها كلها وهي خائفة من أن تفقدهم..

هم من حولها ويحيطون بها..

وحين فقدتهم..

أصبح وحده هو عالمها..

لتحيا ما تبقى من أيامها..

خائفة من أن تفقده هو..

لتعيش وتموت مريضة بعقدة الفقد!

* * *

حين يقترب الحلم..

يساورها الشك!

وحين ترى الواقع..

يبقى الأمل بداخلها..

* * *

حين تتشح أجسادهن بالسواد..

تتبدل ملامحهن كثيابهن..

تتبدل قلوبهن بقلوب أخرى أكثر رقة.. أكثر براءة.. وربما أكثر

خشوعا..

ويبقى هناك شيء واحد لا يتبدل: دمعاتهن!

* * *

كلما انتظرته ليلا لتعاتبه على تركها وحدها..

يكون جوابه الصمت دائما..

لو علم أنها لم تطالبه سوى بأن يخبئها بين ضلوعه..

عل جروح وحدتها تلتئم..

وعل روحها تبرأ من الأوجاع..

لكنه لم يعلم.. ولم يفعل!

* * *

زهدت الحياة والحب من بعده..

فوضعت قلبها وروحها على رفوف النسيان..

فنسيت قلبها.. ولم تنسَه!

* * *

كانت تستيقظ كل صباح..

لتنظر إلى هاتفها متمنية أن ترى منه ولو مجرد رسالة فارغة..

خاب أملها كالعادة فعادت إلى نومها وأحلامها..

التي اعتادت أن تلقاه فيها كل يوم..

* * *

حياتها كالقطار تمر فيه بمحطات..

أحيانا ترغبها.. وكثيرا تمقتها..

لتستقبل زوارا..

أحيانا تريدهم.. وأحيانا أخرى لا يريدونها..

لتعتاد في نهاية الطريق ألا مفر من أن تتحمل كل محطاتها وزوارها!

* * *

يأتون.. ويرحلون.. عن أيامها وقلبها..

وتبقى هناك نتيجة واحدة..

وحدهم هم أقدارها تتبعهم!!

* * *

احتارت كثيرا ماذا تهديه في ذكرى ليلة ميلاده..

فلم تجد سوى قلب لم ينبض إلا له..

روح هامت عشقا به..

عقل لا يفكر بسواه..

عمر لم يكتمل إلا بوجوده..

لتجد هداياها تلك قد مضى عليها الوقت..

وقد بدأت وانتهت حفلته دون حتى علمها!!

الفهرس

إهداء

مقدمة

التعريف بالكاتبة

للتواصل مع الكاتبة

أنا أنثى

أمنية أنثى

نغم منسي

طعم الحرية

النظارة

الفرح المسروق

المعطف

صدفة

سعادة لا تنتهي

أماني

قهوة مرة

وسط الذئاب

مجرد أصدقاء

هي وهو

ربيع الأيام

وارتدت الانتظار

معنى التلاشي

هي وهم

غيبوبة

أزمة «ذات»

على حافة حياة

ألوان الحب

طريق واحد

حلم عابر

زيف امرأة

فصول

أوهام أنثى

أنانية

بعلم الوصول

عَلَى جسر من الأوهَام

قصاصات أنثوية